المكتبة الثقافية

٤٣

العرب والحضارة الأوروبية

محمد مفيد الشوباشي



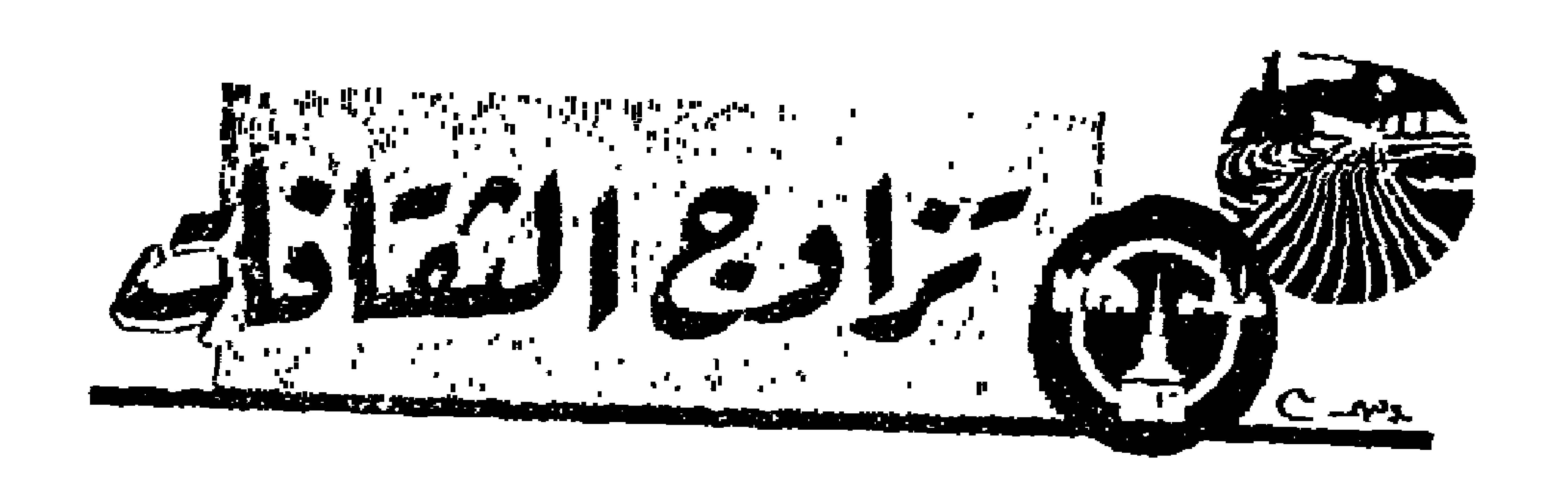
١٥ أغسطس ١٩٦١

المكتبة الثقافية
٤٣

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١



ما من نهضة حضارية ازدهرت فى أمة من الأمم خلال حقبة من الحقب إلا وكان ازدهارها نتيجة لتزاوجها بثقافة حضارة خارجية وفدت عليها . . . ويتوقف مبلغ ذلك الازدهار على وعى الأمة التى تلقت الحضارة الخارجية ، وعلى أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ، ومدى استعدادها لتلقى تلك الحضارة . ولا غرابة فى ذلك ، فإن نهضة أى بلد لا تنشأ من العدم كما تنشأ المدن السحرية ، ولا تزدهر دون أن تتوفر لها أسباب العمران ، ولا تبلغ أوجها منعزلة عن غيرها من النهضات ، وإنما تنمو متأثرة بها ، متفاعلة معها . وليس التطور الحضارى العام إلا ثمرة نشاط البشر المتبادل التفاعل .

وقد يسأل سائل : كيف نشأت إذن أول حضارة فى التاريخ ما دامت نشأة الحضارة لا تتيسر إلا إذا تزاوجت بنهضة أخرى أجنبية عنها ؟ ...

لا محيص من أن تكون الإجابة عن هذا السؤال افتراضية ، لأن أحدا ممن عاشوا فيما قبل التاريخ لم ينبئنا بحقيقة ما حدث فى أغوار العصور المظلمة التى انبثقت البشرية خلالها . بيد أننا لن نشطّ وراء الخيال . وسيرى القارىء أن صدق إجابتنا يمكن إدراكه بالبداهة .

إن أول شعاع للوعى الإنسانى بزغ فى ذهن الإنسان الهمجى ضئيلا ، وتطور بطيئاً كتطور الإنسان من المرحلة شبه الحيوانية إلى المرحلة الإنسانية . وكانت كل فكرة يوحى بها الواقع إلى ذلك البدائى تبدو فى ذهنه غير واضحة حتى يطبقها ، فإذا التطبيق يقوّمها ويزيدها وضوحاً ، وإذا مبادلتها مع غيره يطورها ويجلوها ويمهد السبيل لتولد غيرها وتطورها . . . وما تعاونت عقول الأفراد الأول على تفهم الواقع ، وأدى تزاوج افكارها إلى ازدياد الوعي البشرى الناشىء ، وتحسن الإنتاج البدائى حتى أخذ ذلك الفكر النامى ينتقل بين الجماعات والقبائل المتكاثرة ، ويتزاوج بما يصادفه من فكر جديد ، ويتوالد ويكبر ويعمل على تحسين الإنتاج المحلى أو المقتبس من الخارج . . . واستمر هذا التطور التدريجى لفهم الجماعات البدائية وإنتاجها حتى وصل إلى مرحلة جديدة حاسمة لدى أول أمة تخطت العصر

القبلى القديم إلى العصر الزراعى — ومن ثم نشأت أول حضارة فى التاريخ .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن هذه الحضارة الأولى نشأت فى ربوع وادى النيل ، وأن فيضان هذا النهر العظيم كان أهم عامل على سرعة ازدهارها ، ذلك أن المصريين القدامى لم يتجهوا بادىء الأمر ، إلى دراساتهم الفلكية والرياضية إلا ليعرفوا موعد ذلك الفيضان على وجه الدقة ، فيعدّوا الأرض للزراعة ، ويبذروا البذور فى الوقت المناسب . ثم إنهم تعلموا مقاييس الأطوال من قياس مناسيب ارتفاعه ، وتعلموا الموازين والمكاييل من محاولة تحديد كميات المحاصيل . . . ونكتفى بما تقدم على اقتضابه حتى لا نبتعد عن موضوع هذا الكتاب .

وتتزاوج ثقافة بلد من البلاد بثقافة أجنبية عنها إما عن طريق الوفادة ،او عن طريق الاجتلاب .

والوفادة تحدث بالغزو على الأغلب ، أو بالتجاور والتبادل التجارى، أما الاجتلاب فيحدث عند ما ينمو وعى أمة ما تهيأت لها ظروف اليقظة الفكرية ، فاشرأبت إلى البلاد الأخرى تنقل عنها علومها وفنونها ومختلف أسباب نهضتها ... وكثيراً ما تنتقل الحضارة سالكة هذين الطريقين معاً . وذلك حينما يغزو الغزاة

بلداً من البلاد ، ويتغلبون عليه بفنون عسكرية مستحدثة ، وعدة حربية مبتكرة ، ويسوسونه بأساليب جديدة ، فيوقظ ذلك وعى أهله ، ويحفزهم إلى تلقى علوم الغزاة وفنونهم ، ثم اجتلابها من مصادرها حتى بعد زوال غمة الاحتلال .

وإذا نظرنا إلى حضارات الأمم القديمة المتجاورة التى تمدد غزو بعضها لبعض نجد التشابه بينها وثيقاً إلى حد يكاد يجزم بتزاوجها . فالمعابد والتماثيل والأضرحة الأثرية وغيرها من الآثار الحضارية والتقاليد التى جالدت الزمن فى الهند والصين واليابان وجزر الهند الشرقية وما جاورها من بلاد الشرق الأقصى تكاد تتجانس . . وكذلك تتشابه ديانات تلك البلاد وتقاليدها وثقافاتها تشابهاً لا يتوفر إلا بالتلقن أو الاقتباس . وتدل آثار آشور وكلدية وبابل على أن مبدعيها تأثروا بفنون كل من الحضارة الآسيوية ، وحضارة مصر القديمة .. ولا عجب فقد كانت تلك البلاد الواقعة بين آسيا ومصر مرتاداً لجيوشهما ولقوافل التجارة المتبادلة بينهما .

ويرى مؤرخو الغرب أن الحضارة الأوربية الحديثة وليدة الحضارة الإغريقية فغزو الرومان لغرب أوربا ، وغزو النورمانديين لانجلترا ، وما تبع ذلك من غزوات ، أيقظ وعى

الشعوب فى تلك الأصقاع ، ولفتها إلى ثقافة الغزاة ، فأقبلت على المصنفات اللاتينية التى كانت تعكس الفكر الإغريقى ، ونهلت منها ، وغذّت لغاتها الأصلية بفيض من كلماتها . وتهيأت بذلك للنهضة الحديثة التى بدأت كما يقول أولئك المؤرخون بسقوط القسطنطينية ، ونزوح علماء الإغريق إلى غرب أوربا مزودين بمزيد من المؤلفات الإغريقية .

ونحن نسلم لهؤلاء بأن اثر الثقافة الإغريقية كان فعالا فى حركة نهوض أوربا خلال العصر الوسيط . ولكننا ننكر أن الفكر الإغريقى هو الذى عاونها على الخروج من ظلمات ذاك العصر ، وأطلع فجر نهضتها الكبرى ، وآذن بانبثاق العصر الحديث . ونقرر مع المنصفين من المؤرخين الغربيين ، وهم قلة ، أن تيار اليقظة الأوربية ابتعد فجأة عن الموارد الإغريقية — أو ابتعد جانبه الرئيسى عنها — وعرّج ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى على الموارد العربية . ومن ثم ظهرت فى أوربا بوادر نهضة علمية أدبية ذات خصائص جديدة شبيهة بخصائص ثقافة العرب . فكيف تم ذلك ؟ وما هى النتائج التى ترتبت عليه ؟ إن الرد على هذين السؤالين هو موضوع كتابنا هذا .

* * *

لم يكن القادة والملوك الهمج يدعون الدعاوى حين يشنون غاراتهم على البلاد الأخرى . فقد كان قصدهم منها سافرا ، وهو النهب والسلب ، وتوسيع دائرة الملك والسلطان، وتحقيق الأمجاد . ولكن الفتوحات الإسلامية شذت عن هذه القاعدة لأول مرة فى التاريخ ، وتوخت تحقيق رسالة تسمو على مجرد الغزو والفوز بالأسلاب والأمجاد ... كان الهدف الأول لتلك الفتوحات نشر الإسلام ، وتلقين الناس تعاليمه النبيلة ، وهدايتهم إلى مقاصده الجليلة . ولهذا لم تنحسر هذه الفتوحات ويتبدد أثرها كغيرها من غزوات الهمج ولم يبطىء تزاوج حضارتها بحضارات الأمم المفتوحة كما كان يحدث قبلها . فالحماسة التى كان العرب يغرسون بها بذور علومهم وآدابهم وفنونهم فى الأمم التى فتحوا بلادها جعل الغرس يسرع فى نموه على مر الحقب ... وقد بلغ ذروة نمائه حين انتقل من الأندلس إلى أوربا ، واختلط بالثقافة الأوربية ، فتمخض عن حضارة العصر الحديث .

لقد ظهر أثر حضارة مصر القديمة واضحا فى بلاد الشرق الأوسط التى تعرضت لغزو الفراعنة . وكذلك ظهر أثر حضارة الإغريق فى البلاد التى ارتادتها جيوشهم . ولكن الخير الذى عم تلك البلاد نتيجة للغزو المذكور لم يتوفر لها عن قصد ،

وإنما توفر عرضا ، فكان نعمة تولدت عن نقمة . أما الفتوحات الإسلامية فتختلف عن مثل تلك الغزوات ، لأنها استهدفت من أول الأمر نشر الثقافة الإسلامية ، ووضعت هدفها هذا نصب عينيها ، فأنتج ذلك نتيجته المرتقبة ، وهى عمق أثر تلك الفتوحات ، بل لقد تمخض آخر الأمر عن الحضارة الأوربية التى بلغت اليوم ذروة لم تكن متوقعة . ونحن لا تنفرد بهذا القول ، ولا نميل فيه مع الهوى ، فقد سبق إليه قوم ليسوا شرقيين وليسوا مسلمين ... بيد أننا لن نكتفى هنا بترديد أقوال هؤلاء ، وإنما سنقدم فى ثنايا الكتاب أدلة على صحة قولنا ، جديرة بتدبر المنكرين

لم تجرؤ البلاد المتحضرة ، بعد الفتوحات الإسلامية ، على شن حروبها التوسعية الاستغلالية دون أن تبررها بدعوى استهداف أهداف إنسانية أو حضارية . وقد وضح ذلك أول ما وضح فى حروب نابليون التي اكتوت مصر بنيرانها قبل غيرها من البلاد . . . ألم يدع هذا العسكرى الطموح أنه قصد بها نشر مبادىء الثورة الفرنسية ، والقضاء على القوى الرجعية التى تحاول خنق تلك الثورة وهى فى مهدها ، وتقويض نظام الإقطاع المعيق للتطور الحضارى ؟ بيد أن سيرة نابليون تدلنا على أن هذه

الأهداف كانت ثانوية فى نظره ، أما هدفه الرئيسى من غزواته فكان إنشاء امبراطورية عالمية يتسلط عليها بتنصيب إخوته وأقربائه و (ماريشالاته) ملوكا وحكاما لمختلف بلادها . . . ولكن أطماع نابليون الشخصية لم تحل دون تمخض حروبه عن نتائجها المرموقة ، وهى تقويض أركان الإقطاع بالفعل ، وازدهار النظام الرأسمالى الناشىء ، وتقارب الدول الأوربية ، وتزاوج ثقافاتها ، وتحول آدابها وفنونها إلى اتجاهات جديدة ، وسرعة تطورها .

ومن الواضح أن غزو نابليون لبلادنا أيقظ وعينا ، وحدا بنا إلى التطلع للثقافة الغربية التى نهضت بأوربا ، ومكنتها من صنع الأسلحة الفتاكة التى قهرتنا وقتذاك ، فأخذنا نغترف من معين علومها وآدابها أملا فى اللحاق بها ، ومنافستها فى ميدانى العلم والأدب ...

ومن الواضح كذلك أن هذه النتيجة لم تخطر ببال نابليون قط ، فالسبب الذى دعاه إلى افتتاح حروبه الطاحنة بغزو بلادنا هو فتح بلاد الهند كما هو معلوم ، وانتزاعها من براثن انجلترا التى كانت تستمد منها أسباب الثروة والقوة والسلطان . أما اصطحابه لبعض مواطنيه من أهل العلم والفكر إلى مصر ،

فلم يكن القصد منه تلقيننا علوم الغرب وفنونه ، ولكن دراسة مصر على نحو يمكن فرنسا من استغلالها أو الإفادة من احتلالها على أفضل وجه . ولا يحتاج هذا كله إلى الإفاضة فى شرحه ، وإقامة الأدلة على صحته . فهو معلوم ومسلم به .

وأحدث غزو نابليون لأسبانيا أثرا شبيها بالأثر المتقدم الذكر ، إذ استيقظ الوعى القومى هناك على دق طبول الحرب ، وهب الشعب الأسبانى مدافعا عن مصالحه الوطنية ، وعن حريته وكرامته ، وخاضت الآداب والفنون ميدان الكفاح مع الشعب فى سبيل إحقاق حقه فى التمتع بحياة أعز وأفضل . ولم تلبث أن ازدهرت نهضة أدبية فنية يعرف أدباؤنا من ممثليها : « جويا » فى ميدان الفن ، و « بلاسكو إيبانيز » فى ميدان الأدب .

وحدث فى روسيا القيصرية نفس الأمر بعد غزو نابليون لأراضيها ، فلم يكد القرن التاسع عشر يقترب هناك من منتصفه حتى صار المجتمع الروسى المثقف أشبه بالمجتمع الباريسى ؛ لفرط محاكاته له فى جميع المظاهر الحضارية . وخضع الأدب اول الأمر لذوق هذا المجتمع المقبل عليه ، وأخذ يحاكى بدوره الأدبين الفرنسى والألمانى ، وعندما نما وتجاوز عهد الطفولة والمحاكاة بدأت مقومات شخصيته تظهر شيئاً فشيئاً حتى تغلب

على حاجته إلى المحاكاة ، وظهر لونه القشيب الذى يمثله إنتاج جوجول وپوشكين ثم دوستويفسكى وتولستوى وغيرهم

* * *

وابتلى العالم بعد حروب نابليون بالحروب الاستعمارية ، وقد ادعت الدول التى شنتها كذلك أنها لم تقصد من ورائها إلا نشر حضارة الرجل الأبيض فى البلاد المختلفة . ونحن هنا فى الشرق نعلم مبلغ افتراء أولئك المستعمرين على الحقيقة ، فقد وضح بعد احتلالهم للبلادالتىادعوا الرغبة فى معاونتها على الأخذ بأسلوب الحضارة أنهم لم يقصدوا غير استغلالها ، ومن الطبيعى أن يدفعهم قصدهم هذا إلى السعى لإبقاء تلك البلاد فى وهدة التأخرحتى يضمنوا استمرار استنزافهم لموارد خيراتها . وهكذا عملوا علىعرقلة نموها وازدهارها من حيث ادعوا أنهم يعملون على رفع مستواها المادىّ والمعنوىّ ، وقد أطلقوا إرساليات التبشير فى كل بلد يطمعون فيه ، وسخروها فى التمهيد لاحتلاله، وفى إخضاع أهله لهم فكريا قبل إخضاعه عسكريا وسياسيا ... وإذا كان العرب قد فتحوا الأمصار للتبشير بدينهم الحنيف ، فإن المستعمرين بشروا بدينهم ليفتحوا الأمصار . وترتب على

ذلك أن وجدت الأمم التى دخل العرب بلادها منهلا من الثقافة العربية متاحا فروت منه ظمأها إلى المعرفة ، وقفزت فى طريق الصعود قدما ، بينما بذلت الدول الإستعمارية التى تدعى معاونة الأمم المتخلفة فى ميدانى الاقتصاد والثقافة ، قصارى ما فى وسعها للحيلولة دون تقدمها فى كل ميدان .

وإذا كانت جهود المستعمرين فى تلك السبيل قد أسفرت فى بادىء الأمر عن تأخير حركة التطور فى مستعمراتها ، فإنها لم تستطع أن توقفها . وسرعان ما أيقظ الاستغلال والاستبداد وعى الشعوب التى وقعت فى براثنها ، ونشطت حركة مقاومتها لها ، واشتد نضالها فى سبيل استرداد حريتها المسلوبة ، وحقوقها المغتصبة ، إلى أن دبت الحياة فى أوصال ثقافتها التى ما كادت تقوى على المجالدة حتى اقتحمت ميدان النضال السياسى لتأييد حركة التحرر ، وكان من الطبيعى أن تستمد تلك النهضات الثقافية الناشئة ، فى مثل تلك الحال ، أسباب ازدهارها من ثقافة المستعمرين وغيرهم من الأجانب ، وأن يحدث التزاوج بين تلك الثقافات أثره رغم الحوائل والسدود .

* * *

إن الحضارة لا تنتقل من بلد إلى بلد كما ينتقل المصباح

الذى يضىء كل مكان ينتقل إليه دون أن يعتوره هو نفسه أى تبدل . ولكنها ترسل شعاعها إلى البلاد الأخرى فيستضىء بنورها كل بلد هيأته ظروفه لرؤية ذلك النور . وهى تكتسب أينما حلت قوة وحيوية مستحدثتين ، وخصائص مستمدة من ميزات أهل البلد الذى تحل فيه ومن نظم حكمه وأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية . أى أنها تؤثر فيه وتتأثر به فى تفاعل متوال مستمر ، ولا تلبث أن تتخذ طابعا جديدا متولدا من ذلك التفاعل .

والحضارة فى كل حقبة معينة تبلغ فى بلد من البلاد مستوى من الازدهار لا تبلغه فى غيره ، وتنتقل فيه من مرحلة تقدمية إلى مرحلة أبعد منها تقدما ، وقد بلغت فى مصر القديمة أعلى مستوى عرفه ذلك العصر ، ثم أرسلت نورها إلى ما حولها فاستضاءت به البلاد المجاورة . وكانت بلاد الإغريق مهياة أكثر من غيرها للاهتداء بذلك النور ، ولم تلبث أن ورثت مشعل الحضارة عن مصر فازداد فى يدها توهجا . بيد أن هذا المشعل لم يحدث أثره الفعال على الفور ، حين انتقل منها إلى غرب أوربا حسبما يزعم أغلب المؤرخين الأوربيين ، ولكنه أحدث ذلك الأثر بعد أن عرج على بلاد العرب فاكتسب منها نورا على نور ،

بل ازدان بمقومات وخصائص جديدة هي التي امدته بالقوة الخارقة الدافعة ، ومكنته من فتح سبيل الانطلاق الحضارى أمام أوربا الغربية ، ومن دفعها إلى أمام .

وهناك من يظن أن أمة العرب كانت غير متحضرة حينما اغترفت من ثقافة الإغريق . والواقع أنها كانت قبل ذلك ذات حضارة مرموقة استمدت أسسها من حضارتين عريقتين سابقتين على الحضارة الإغريقية هما حضارتا الفرس والمصريين القدماء ، وكانت الحضارة الأولى تتجلى فى أبهى مظاهرها وراء حدود العرب الشرقية مباشرة ، فلم يتعذر على هؤلاء أن يغترفوا من ذخائرها ما يلائمهم؛ ثم إنهم تلقوا الحضارة المصرية عن طريقين تجاريين: أولهما طريق الحبشة فاليمن ، وثانيهما طريق طور سيناء ففلسطين . وهكذا أصبحت لهم حضارة عربية الصبغة ، نبتت فى الأصل من بذور الحضارتين المذكورتين ، فلما اغترفوا من معين الثقافة الإغريقية — وكانت متأثرة إلى حد كبير بالثقافة المصرية القديمة — لم يجدوا صعوبة فى استيعابها وهضمها ، ولم يعدموا القدرة على مزجها بثقافتهم ، وطبعها بطابعهم ، ولم يلبث هذا المزيج الثقافى أن تمخض عن حضارة عربية أعلى مستوى ، وأجدّ طابعا من سابقتها . ولزيادة الأمر إيضاحا نقول :

إن العرب تأثروا بالحضارة المصرية القديمة التى كانت منتجاتها وثقافتها تزحف إليهم عن طريق الحبشة وطريق الشام ، ثم لم تلبث الحبشة والشام أن تحضرتا أيضا متأثرتين بالحضارة المصرية ، وحملت القوافل التى تنقل آثار الحضارة المصرية إلى الجزيرة العربية ، آثار حضارتيهما أيضا . وبدأت بذور تلك الحضارات المختلفة تثمر فى الجزيرة وتنتج حضارة جديدة مطبوعة بطابعها ...

وانتقلت الحضارة المصرية كذلك إلى فينيقيا ، ثم إلى اليونان القديمة عن طريق فينيقيا . وتفجر ينبوعها فى تلك البلاد فأنتج الحضارة الإغريقية التى بهرت العالم ، وامتد نورها إلى البلاد المجاورة ... ومن بينها البلاد العربية ... وبذلك يمكن أن نقول إن بقايا من حضارة مصر القديمة انتقلت هذه المرة أيضا إلى العرب ... ولكن عن طريق اليونان القديمة بعد أن تكيفت هناك تكيفا جديدا . وكان العرب مهيئين لاستقبالها خير تهيؤ ، وقادرين على تطويرها من جديد ، وطبعها بطابعهم ورفعها إلى مستوى حضارى أرقى من مستوى حضارتى مصر واليونان القديمتين .

كذلك تلقت أوربا الغربية الفكر الإغريقى وتأثرت به . ولا يزال أغلب مؤرخى الغرب يرون حضارتها الحديثة تولدت

من تلك الثقافة ، فإذا ووجهوا بأثر العرب فى بناء حضارتها المذكورة أنكروه كل الإنكار ، زاعمين أن فضل العرب — إن كان للعرب فضل — يقتصر على مساهمتهم فى صيانة التراث الفكرى الإغريقى من عصف السنين ، ونقله سالما إلى الغرب ... ولكننا سنضطلع فى هذا الكتيب بالتدليل على أن الحضارة القديمة حين انتقلت ـ خلال طوافها المتلاحق ـ من بلاد الإغريق إلى الجزيرة العربية ، سمت فى هذه الجزيرة إلى مستوى حضارى جديد ، واتخذت طابعا عربيا مميزا كان له هو الأثر الأقوى فى تحويل التيار الفكرى الأوربى من الوثنية الإغريقية إلى الاتجاه الإنسانى المهذب ، وتمكينه من إقامة صرح الحضارة الحديثة . . . ولا ينفى هذه الحقيقة التى سنقيم الأدلة على صحتها ، تسليمنا بأن الحضارة العربية تأثرت فى وقت ما بالحضارة الإغريقية ، واستعانت بها على النماء والازدهار .

* * *

إن أثر التزاوج الثقافى يبدو اليوم واضحا فى كل بلد من بلاد الأرض ، وهو يتم فى الوقت الحاضر دون حاجة إلى هجرة القبائل ، أو غزو الغزاة ، أو إلى تجار ينقلون مختلف الثقافات مع بضائعهم ، فالأمم تسعى إليه فى العصر الحديث عن قصد راغبة

فيه ، مدركة لأهميته ، بعد أن كان يحدث عفوا ، وبطرق لم تكن تستهدفه أصلا . ومن المعروف أن وسائل المواصلات التى ربطت الدول بعضها ببعض ، ومختلف الاختراعات التى تنقل ثمار الفكر البشرى على متن الأثير قبل أن تنقلها الكتب والصور والصحف والأفلام ، مكنت التزاوج الثقافى من أن يخطو خطواته الأولى فى سبيل الامتزاج الشامل العالمى ، ونحن نرى الآن كيف أن اى اختراع ، أو أية فكرة يبزغ نورها فى أى بلد من البلاد تتلقفها البلاد الأخرى ، وتدخل عليها التحسينات ، وتطورها ، وتولد منها أفكارا اخرى على نحو يستثير الإعجاب والعجب .

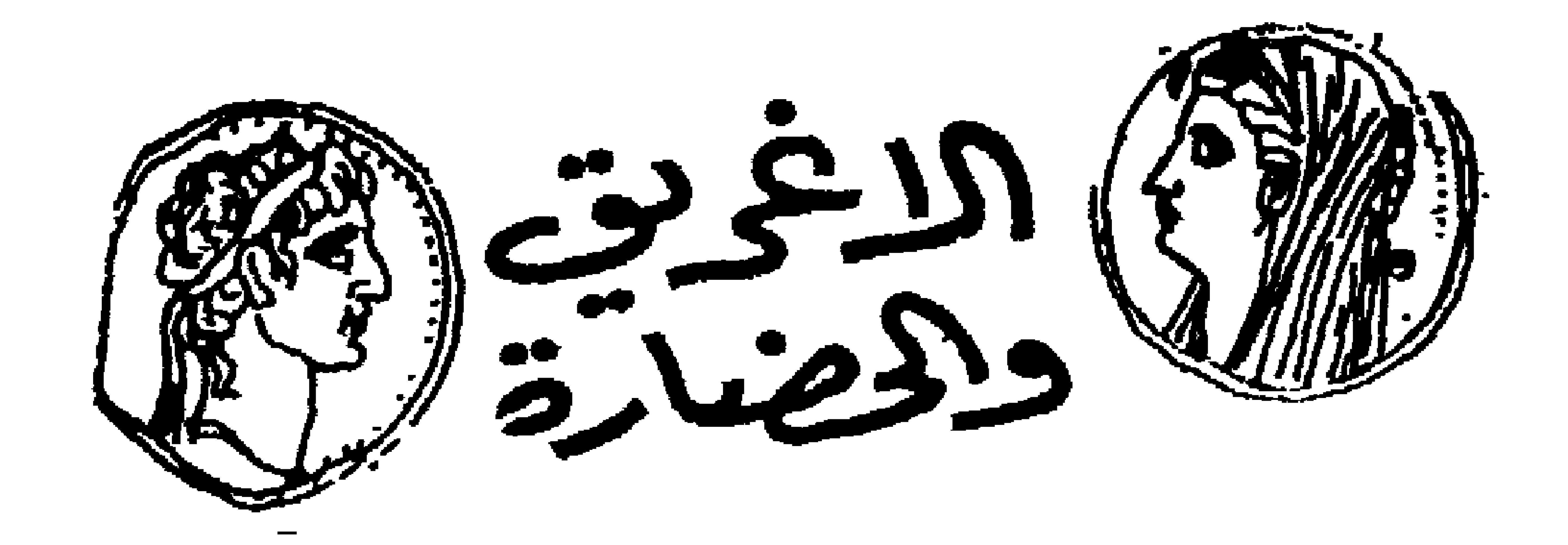
وإذا كانت ثقافات الدول الغازية قد قامت فى الزمن الغابر بعملية غزو معنوى لثقافات البلاد المعتدى عليها علاوة على الغزو المادىّ ، فإن مثل هذا الغزو المعنوى الذى يستهدف تدمير القوى الروحية المناهضة للاستعمار يتعذر حدوثه فى هذا العصر الذى نما فيه وعى الشعوب ، وقويت روحها الوطنية حتى أصبحت حصنا يستحيل على القوى الاستغلالية اقتحامه رغم ما تبذله ، حتى فى هذه الأيام ، من دعايات مغرضه مصبوبة فى قوالب ثقافية .

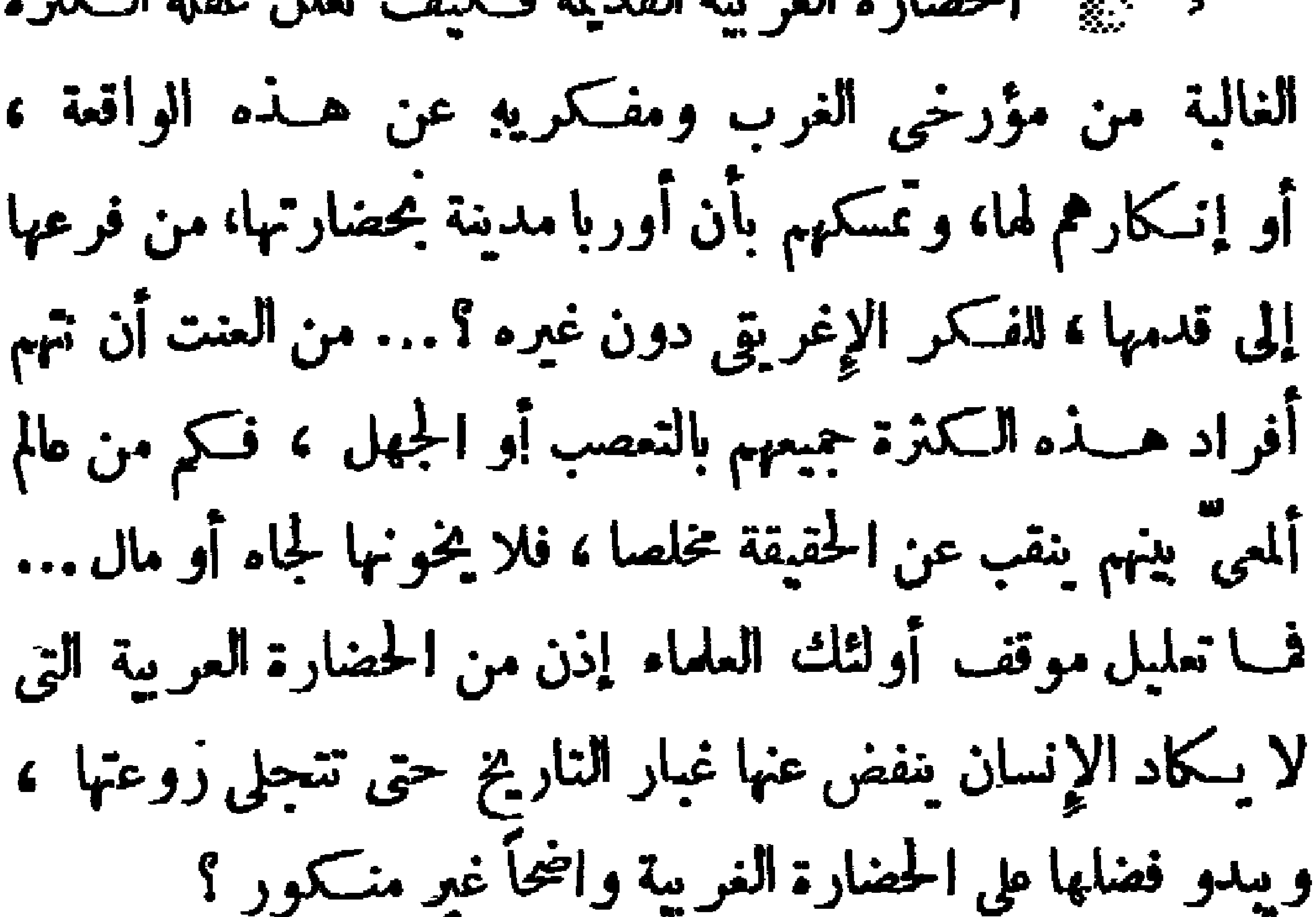
ولا نكران أن الأمم التى تسير فى أول الطريق الحضارىّ تحتذى الأمم المتقدمة عليها فى ميادين الأدب والفن والعلم ،

ولكنها عندما تتمكن من تحصيل قدر معين من الثقافة ، وبلوغ مستوى معين من الوعى ، تظهر مقومات شخصيتها بعد تخطيها مرحلة المحاكاة ، ويتحول إنتاجها الأدبى والفنى الذى يحتذى غيره إلى إنتاج أصيل يعبر عن أفكارها وخلجاتها ، ويمحص مشكلاتها ، ويعكس نقائض الواقع المحيط بها ، ولا تلبث أن تبنى لها صرح حضارة قومية مطبوعة بطابعها الخاص ، وإن كانت عالمية الأساس .

إن الحضارة الحديثة لم تزدهر على هذا النحو الحاضر الباهر إلا بتزاوج حضارات الأمم المختلفة على مر التاريخ . والتبادل الثقافى اليوم بين مختلف البلاد هو الكفيل بالمراد تقدم الأمم ، وتطور الحضارة العام ، فلا غضاضة على بلد يستعين ببلاد أخرى فى ميادين العلم والأدب والفن ليحقق ازدهاره ، ما دامت الحضارة الحديثة نتيجة لجهود الجميع ، ومن ثم ملكا للجميع .







إذا صح أن حضارة أوربا الحديثة نبتت من بذور الحضارة العربية القديمة فكيف نعلل غفلة الكثرة الغالبة من مؤرخي الغرب ومفكريه عن هذه الواقعة ، أو إنكارهم لها، وتمسكهم بأن أوربا مدينة بحضارتها، من فرعها إلى قدمها ، للفكر الإغريقي دون غيره ؟ ... من العنت أن نتهم أفراد هذه الكثرة جميعهم بالتعصب أو الجهل ، فكم من عالم ألمعيّ بينهم ينقب عن الحقيقة مخلصا ، فلا يخونها لجاه أو مال ... فما تعليل موقف أولئك العلماء إذن من الحضارة العربية التي لا يكاد الإنسان ينفض عنها غبار التاريخ حتى تتجلى روعتها ، ويبدو فضلها على الحضارة الغربية واضحاً غير منكور ؟

لعل عذرهم في ذلك أنهم حين ينظرون إلى أدب بلادهم — والأدب من أهم عوامل التطور الحضاريّ وأشدها أثراً — يجدون قسما غير قليل منه يعكس قسمات الأدب الإغريقي ،

أما قسمات الأدب العربى فلا يبدو فى أدبهم أثر منها برغم أنهـا تغلب فيه على القسمات الإغريقية ؛ ويرجع ذلك إلى أن الأدب الإغريقى القديم يبدو متميزاً واضح المعالم لقارىء هـذا العصر نظراً لوثنيته البعيدة العهد ، فى حين أن الأدب العربى إنسانى طبيعى من نوع الأدب المعاصر ، ومن ثم لا يفطن إلى أثره فى الأدب الحديث إلا المـلم بدقائقه ... ومؤرخو الغرب غير ملمين بها ... ثم إن بعض كتاب الغرب لا يزالون يعيدون صياغة بعض المسرحيات والمنظومات القصصية الإغريقية ، محتفظين لها بروحها واتجاهها الفكرى ، وأسماء أشخاصها واماكنها . وهكذا يحتفظ بعض الإنتاج الأدبى الأوربى بتراث الإغريق الفكرى ، ويعكسه واضحاً دون مواربة .

ويعرف حتى أنصـاف المتعلمين فى أوربا أسماء أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة الإغريق الذين يعاد طبع أعمالهم الفلسفية إلى اليوم ، ويكثر الاستشهاد بهـا ، وقد ظلت فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو مسيطرة على العقول فى أوربا الغربية طوال العصر الوسيط ، واعتنقها رجال الكنيسة رغم وثنيتها ، وحرموا على المفكرين مناقشتها ، بله تفنيدها ، فامتدت لها جذور ، ورسخت اصول لم يسهل على الزمن أن يعصف بها ،

وقد تولدت منها مذاهب مستحدثة فى علم الفلسفة والنقد ، وظل الأصل مع ذلك متشبثا بالبقـاء . أما من الناحية الأخرى فقد استضاء بعض فلاسفة الغرب بالفلسفة العربية ، واقتبسوا بعض كشوفها وطوروها ، ونسجوا منها مذاهب متـكاملة دون أن يشيروا إلى الأصل العربى الذى اقتبسوا منه . وهـكذا ظهر الفرع نامياً متشعب الأغصان بينما ظلت الجذور خافية عن العيان فى أغوار التاريخ .

ثم إن تماثيل الإغريق وغيرها من تراثهم الفنى لا تزال تستثير إعجاب هواة الآثار الفنية ، وتشحذ خيالهم ، بينما خلت حياة العرب الفنية من مثل ذلك الإنتاج الفنى الذى حالت كراهية العرب للأوثان دون ازدهاره .

فلا عجب إذا خيل للمتعجل فى الحـكم أن الحضارة الأوربية الحديثة وليدة الحضارة اليونانية وحدها ، ما دامت شواهد هذه الحضـارة الأخيرة هى التى تبدو واضحة — كما قلنا — فى مختلف ميادين الأدب والفن الأوربية .

* * *

تولدت الحضـارة الإغريقية من الحضارة المصرية القديمة ، كما قلنا ... ولا مجال هنا للتدليل على صحة هذه الواقعة التاريخية

الكبرى . ويكفى أن نشير إلى أن اغلب مفكرى الغرب اعترفوا بهـا ضمنا حين قرروا « أن مصر مهد الحضارات جميعاً » ...

كانت حضارة مصر القديمة حضارة زراعية ، او بتعبير ادق، حضارة متولدة من أوضاع مصر الزراعية وقتذاك ، فلما هبت نسائمها على اليونان القديمة تأقلمت هناك ، واكتسبت طابعها الجديد من أوضاع تلك البلاد .

كانت « المدينة » هى شكل الدولة وقوامهـا هناك ، وكان نظام الرق هو السائد ، فخلعت الحضارة المصرية حينما استقرت فى تلك المدن بردها الريفى او الزراعى ، وتجملت ببرد المجتمع المرفه المستمرىء للبطالة ، المتكل فى معاشه على عمل عبيده وأرقائه ... مجتمع لا يتوسل إلى آلهته أن توفر له الماء لرى أراضيه ، وتنقذ زرعه من الآفات ، وتوفر له كل أسباب الترعرع والازدهار ، ولكنه يتوسل إليها أن تحل له مشكلات حياته المدنية ، وتعينه على التنكيل بأعدائه ، وتنقذه من الشرور المقدرة له ، وتخضع له حبيبته ، وتيسر له كل أسباب المتع والملذات ... وقدترعرع الفكر اليونانى حقاً فى عالمى الفلسفة والأدب ، ولكنه ظل — على الأغلب — محلقا فى سبحات

الأحلام والتاملات ؛ لأنه لم ينزل إلى ميدان العمل، ويحتك به، ويكتسب منه الواقعية الصادقة . وأنى له ذلك وأهل الفكر والأدب يحتقرون العمل لأنه مهنة العبيد، ويزدرون الواقع بالتبعية ، ولا يرون جمالا وسموا فكريا إلا ما يتولد عن التأمل المجرد ... وما من شك فى أن فلسفة الإغريق وأدبهم ساهما بقسط كبير فى بناء حضارة أوربا الغربية ، ولكنهما لم يضطلعا بهذه المهمة — كما يزعم الزاعمون — منذ عهد إحياء العلوم فقط ، ولا يرجع إليهما قط الفضل الأول فى خروج أوربا من ظلمات العصر الوسيط إلى أضواء العصر الحديث ... الم يسوذا أوربا حتى فيما قبل العصر الوسيط ؟ وظلا يسودانها مابقى ذلك العصر ؟... فلو أن تلك القدرة كانت لهما حقاً فلماذا طال العصر الوسيط هذا الطول بينما كان مستضيئاً بنورهما ؟ ... لقد زحف الفكر الإغريقى إلى أوربا الغربية مع الزحف الرومانى ، ثم حمل العرب إليها نفحات جديدة منه مشبعة بالروح العربى ، ثم حمل علماء القسطنطينية الذين نزحوا إلى الغرب بعد سقوط مدينتهم آثاراً أخرى منه . فلماذا بدأت بشائر نهضة أوربا الحديثة منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ؟... كيف لا يكون هناك عامل آخر مرهون بهذا الوقت بالذات، حفزها

إلى النهوض ؟... إننا نزعم أن هذا العامل موجود فعلا ، وأنه الحضارة العربية التى انتقلت إلى أوربا من الأندلس ، ومن بلاد عربية غير الأندلس في الميعاد المشار إليه بالذات ، أى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ... انتقلت إلى أوربا وقتذاك فنقلتها من مرحلتها التطورية الوسيطة إلى مرحلتها التطورية الحديثة .

* * *

كان فكر الإغريق وأدبهم ينشران فى أوربا ، خلال العصر الوسيط ، باللغة اللاتينية التى لم يكن يلم بها إلا قلة من المثقفين أغلبهم من رجال الكنيسة ، وكان فريق من هذه القلة يتعصب لأفلاطون ، وفريق آخر يتعصب لأرسطو إلى الحد الذى لم تستطع معه حتى المسيحية أن تحدث أثرها ، وأن تؤتى وقتذاك ثمارها فى تلك البلاد .

وظهر من بين هذين الفريقين مؤلفون عمدوا إلى وضع مؤلفاتهم باللغة اللاتينية طبعا ؛ لأنها كانت لغة الكتابة الوحيدة فى ذلك العهد ، وكان الجمهور الغارق فى الجهل غير ملم بها بداهة ، فلم يتأثر بتلك المؤلفات إلا عن طريق رجال الكنيسة وأتباعهم الذين كانوا يبثون مضامين بعضها فى الأذهان ، وكان الناس هناك

وقتئذ مسيحيين ، ولكنهم لم يتلقنوا تعالم المسيحية إلا عن أولئك الرجال الذين كانوا متشبعين بالفكر الإغريقي فصبغوا الديانة المسيحية بلونه الوثني الأسطوري ... بيد أن الأساطير الرمزية الإغريقية، ذات المعاني الأدبية ، والدلالات الاجتماعية والسلوكية تحولت في ذهن ذلك الشعب الغارق في الجهالة إلى خرافات مجردة من كل دلالة إنسانية ومعنى شعرى ، فزادته إمعانا في ضلالات جهله ... على هذا النحو تأثرت أوربا الغربية ، خلال العصر الوسيط ، بحضارة الإغريق .

إن الأدب الأوربي الوليد وقتذاك لم يكن إذن يعكس نشاط مجتمعه الفكرىّ والعاطفىّ والمادىّ ، ولكنه كان يحاكي بلا وعي ، أو بوعي بدائيّ قاصر ، أدب الإغريق الأسطوريّ . وهل من عجب في ذلك ؟ ألم يكن معزولا عن الشعب ؟ ألم تكن حتى لغته غريبة عن الشعب ؟ فكيف يتاتى له أن يتأثر به ويعبر عن أفكاره وخواجه ؟ . . . ولكن الحال بدأت تتحول حين اتجه التفكير إلى التعبير عن ألوان النشاط الفكرى والعاطفى باللغة المحلية ...

ففي عام ١١٦٥ أقدم الشاعر الفرنسى « بينيت دى سان مور » على ترجمة « قصة طراودة » من اللاتينية إلى الفرنسية وحافظ

على شكل الأصل فترجمها شعرا وقدم لها بمنظومة هذه ترجمتها :
« لماذا أريد أن أشرع فى نظم ملحمة وجدتها مكتوبة باللاتينية ..
وسأواصل ترجمتها طالما أسعفتنى الموهبة والقدرة . . . وغايتى
أن يتمتع بقراءتها كل من يجهل اللغة اللاتينية » ...

بهذا العمل الأدبى فتح « دى سان مور » باب ترجمة المؤلفات الإغريقية ، المكتوبة باللاتينية ، إلى الفرنسية .

وما كثرت الأعمال الأدبية التى نشرت يومذاك بالفرنسية، وتزايد عدد قرائها حتى نزع بعض أهل القلم إلى تأليف منظومات قصصية على غرارها ... ثم تخطوا مرحلة المحاكاة شيئاً فشيئاً ، وحاولوا أن ينتجوا أدباً أصيلا يعكس واقعهم ، بدلا من الاغتراف الأعمى من أدب الإغريق ، أو التوليد منه . . . وقد أعوزتهم نماذج من الأدب الإنسانى الواقعى يسترشدون بها وهم يخطون الخطوات الأولى فى هذا الصدد لتحقيق بغيتهم ... وفى هذا الوقت بالذات واتتهم الفرصة السعيدة ، وزودهم « الشعراء التروبادور » أو الشعراء المنشدون الأندلسيون بذلك اللون المنشود من الأدب . وهو اللون الذى تميز به الأدب العربى قبل أن يتميز به أى أدب غيره من آداب العالم ...

وإذا اقتضانا هذا البحث أن نحدد تأثير كل من الأدبين

الإغريقى والعربى فى أدب الغرب فلا بد من تحديد الخصائص التى تميز بها كل من هذين الأدبين ، وعند ذلك سيتضح لكل منكر كيف تحول أدب أوربا — ابتداء من أواخر القرن الثانى عشر الميلادى — من المصادر الإغريقية إلى المصادر العربية . . . .

قلنا إن الفكر الإغريقى تأثر بنظام الرق الذى كان خاضعاً له ، فاحتقر العمل اليدوى الذى اختص به العبيد ومن ثم احتقر الحياة المادية ، ونزع إلى التجرد ؛ ووضح ذلك فى فلسفة أفلاطون الذى كان الوجود الواقعى يبدو فى نظره شائها حقيرا ، وكانت الأفكار والمعانى المجردة هى التى تستأثر بلبه ، وتستحوذ على تفكيره . وقد امتد أثر ذلك إلى الأدب الذى أغفل ، على الأغلب ، تمحيص الواقع وتحليل ظواهره ، بل أعرض عن دراسته ، وراح يحاول الخلاص من مشكلات البشر ، وتربص الأقدار لهم ، بالتوسل إلى الآلهة ، أو بالحلول الأسطورية الخرافية .. ومسرحية أوديب خير شاهد على صحة ما نقول .

أما الحب فقد عرفه الإغريق على نحو مغاير للنحو الإنسانى الذى عرفته البشرية ، أو عرفه الفريق المتحضر المتميز من البشر فيما بعد ... قال أحد الفلاسفة يصف حب الإغريق ، أو الحب

الوثنى القديم الذى لازالت له رواسب فى بعض النفوس الرجعية إلى اليوم : — « ظهر الحب الجنسى تاريخيا — لأول مرة — فى صورة عاطفة مشبوبة ، وبدا كأنه « الشكل الأسمى » للغريزة التناسلية ... ولكننا نرى فى جميع أطوار التاريخ ، أن اقتران الزوجين لم يكن يتم بدافع الحب ، ولكن أهلهما هم الذين كانوا يقررون زواجهما بدافع المصلحة على أن يتكفل الزمن بالتقريب بينهما ، وتوفير اعتيادهما لعلاقة الزوجية ، بيد أن العاطفة الضحلة المتولدة من تلك العلاقة لم تكن ميلا ذاتيا ، ولكن واجبا موضوعياً . أما علاقة الحب المشابهة لما نكابده فى هذا العصر فلم يظهر لها أثر فى العصر القديم إلا خارج نطاق المواطنين الأحرار ، أى لم يظهر لها أثر إلا بين الأرقاء . فهؤلاء هم الذين كانوا يتغنون — كما يبدو فى الملاحم والمسرحيات القديمة — بمباهج الحب ، وعذوبة أوجاعه .. أما الحب فى المجتمع الحر القديم فكان وليد الخيانة الزوجية .. كان يحيك المكائد للفوز بملذات الفسق . . . إن الحب الجسدى الذى ساد العصر القديم ، وشبيهه الذى نما فى العصر الوسيط لم يترعرعا فى أحضان الزوجية ، ولكن فى حمأة الرذيلة . وقد سبق لنا أن شرحنا الحب الطاهر ، حب الفروسية الذى عرفته أوربا فيما بعد . . . بيد أنه لا تزال

بين الحب الفاسق الذى يهدم الزوجية ، والحب الطاهر الذى يبنيها ويدعمها ، شقة طويلة لم يقطعها ذوو النفوس النبيلة إلى آخر الشوط » ...

وبالرجوع إلى قصص الإغريق ومسرحياتهم نجد أنها عند تعرضها للحب لاتصور منه إلا ذلك اللون العتيق الذى فسره ذلك الفيلسوف ... أى الحب الضحل المتولد من العلاقة الزوجية المفروضة على الزوجين ، والحب الفاجر . . . حب الزوجة التى تعرض عن زوجها لتنصرف إلى عشيقها . . . والعشيق الذى يقتل الزوج فيخلو له الجو ويتزوج عشيقته ثم تتكرر المأساة ، فتعلق العشيقة بعد الزواج برجل آخر يقتل زوجها الجديد .. إن الحب الذى تصوره لنا ملاحم الإغريق ومسرحياتهم هو الحب الجسدى العنيف المخيف ... الحب الذى تراق فى سبيل ملذاته الدماء ، وتزهق الأرواح ، وتقتحم الأهوال... الحب الذى يتحرق إلى القسر والأسر والاغتصاب . أما الحب الإنسانى المتبادل . الحب الطاهر العفيف . الحب الذى يورث المروءة والنخوة والنبل ، ويدفع صاحبه إلى نصرة الضعيف ، ونجدة الملهوف . . . إن هذا الحب الشبيه بحب العذريين العرب

لم تعرفه أوربا إلا بعد اتصالها بالعرب ، ولم تصوره القصص الأوربية إلا منذ ذلك الحين ..

وكانت تصرفات الإغريق التى تصورها أعمالهم الأدبية تتسم بالخشونة والعنف والتباهى بالقوة الجسدية . . . كانت حروبهم مجازر ، ومصارعاتهم الرياضية مذابح ، وفروسيتهم غلظة وقسوة ، وشجاعتهم عنفا وبطشا . أما الشفقة والرحمة والمغفرة فصفات تحقر صاحبها بدلا من أن ترفع قدره لأنها تدل عندهم على الضعف والعجز والجبن . ثم إنه عندما اضطلعت أعمال ذلك العهد الأدبية بتصوير تلك الصفات والتصرفات عمدت كعادة الأدب القديم إلى المبالغة والتضخيم والتفخيم حتى أصبحت فى نظرنا أشبه بقلاع الأقدمين الغليظة البنيان ، وبمعابدهم الضخمة العمد والجدران .

لم تعرف أوربا إلى ما قبيل العصر الحديث ، إلا هذا اللون من الأدب . ثم طلعت فى كل من إسبانيا وإيطاليا ، خلال القرن الثانى عشر ، بشائر إنتاج أدبى كتب بلغة هذين البلدين ، وتضمن لونا جديدا من الأفكار والمعانى بدا يناقض المؤلفات المنسوجة على غرار المؤلفات الإغريقية . . . وظهر هذا اللون الجديد فى الوقت الذى بدأ فيه بعض المؤلفين الفرنسيين ينشئون

القصص المكتوبة بالفرنسية . وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق — فتزاوجت هذه المؤلفات المختلفة المصادر ، ونحا نتاجها منحى إنسانيا صادقا لم تعرف أوربا نظيرا له من قبل . . .

كان الإنتاج الأدبي الإغريقي يبالغ ، كما قلنا ، فى تصوير الواقع ، ويضخم الميول البشرية العنيفة ، ويجسد الأوهام والخرافات فى أشخاص آلهة الملاحم والمسرحيات المنظومة ، وفى الحيوانات الخرافية ويفسر ظواهر الطبيعة تفسيرا أسطوريا . . . أما الإنتاج الأدبي الأصيل الذى أخذ ينبثق فى أوربا خلال القرن الثانى عشر فقد حرص على تحرى الصدق فى تصوير الواقع ، وفى تحليل العواطف الإنسانية المهذبة . لقد انقلب الأدب الأوربى حينذاك من ادب وثنى أسطورى إلى أدب إنسانى واقعى . فلماذا وقع هذا الانقلاب فى المكان والزمان الذى وقع فيهما بالذات ؟ وما هى عوامل وقوعه ؟ . . إن كل منقب فى تاريخ الآداب القديمة لا يجد شبيها لذلك الإنتاج إلا هنا فى الشرق . . . وفى الجزيرة العربية بالذات . . .

ولكن لماذا نجزم بأن هذا التغير الذى طرأ على أدب غرب أوربا حينئذ يرجع إلى تأثره بالأدب العربى ؟ ألم نقل إنه كان إغريقى الموضوع ، لاتينى اللغة ، منعزلا عن الجماهير فلما طفق

بعض المؤلفين يكتبونه بلغاتهم الوطنية عاد فاتصل بالجماهير ، فلماذا لا تكون هذه الصلة هى التى سددت خطاه ، وردته طبيعيا إنسانيا ؟ . . .

لقد ألمعنا إلى الرد إلماعا حين قلنا: إن ذلك التحول كان يحتاج إلى نماذج يسترشد بها الأدب الأوربى الجديد فى طوره الجديد... فنظرة إلى المسرحيات التى انتشرت فى أوربا بعد كتابتها باللغات المحلية تدل على أنها احتفظت على الأغلب بالاتجاهات الإغريقية القديمة ولم تختلف إلا من حيث الشكل ... كانت تصور معجزات القديسين والقديسات ، بينما كانت مسرحيات الإغريق تصور دعابات الآلهة ، ورحمتهم بالناس . . . إن مؤلفى غرب أوربا لم يدخلوا أى تغير على مسرحيات الإغريق اللهم إلا استبدال القديسين ، والأولياء الصالحين ، بالآلهة والكهنة .

ولم يكن يسهل تبدل تلك الحال إلا بهبوب نسمات منعشة من أدب متجدد الألوان . وهذا ما كان فى ذلك الأوان . . . فقد أمد الأدب العربى أوربا الغربية بالنماذج الأدبية التى كانت تحتاج إليها ، وحول أدبها إلى اتجاهات جديدة كانت السبب فى انطلاقه قدما فى طريق السمو الفنى . وأقل ما يقال عن فضل العرب على الأدب الغربى ، إنهم سهلوا عليه بما تقدم سلوك

سبيل التطور الطويل ، واختصروا له زمن الانتقال إلى المرحلة الحضارية التي وصل إليها في العصر الحديث فإذا قيل إن الأوربيين كانوا سيصلون إلى ما وصلوا إليه من مستوى حضاريّ سواء أعانهم العرب على بلوغ ذلك أو لم يعينوهم ، قلنا إن العرب ساهموا في بناء صرح الحضارة الأوربى ، وإنهم كانوا السبب في سرعة بنائه . وفي ذلك فضل أي فضل .

وقد يؤخذ على قولنا المتقدم أن الأعمال الأدبية العربية ما كانت لتصلح نماذج لأدب أوربي أصيل ، فما دام الأدب يعكس نشاط مجتمعه ، ويعبر عن معتقداته ومشاعره ، فكيف تصلح الأعمال الأدبية لأمة من الأمم نماذج لأدب أمة أخرى تختلف عنها في الصفات والأفكار كل الاختلاف ؟ . وردّنا على ذلك أننا لم نقصد بما قلنا أن مؤلفي الغرب وجدوا في نماذج الأدب العربي منهلا يغترفون منه الموضوعات والمعاني . وإنما قصدنا أنهم تعلموا منها فن التعبير الصادق عن الواقع ... بيد أن هناك حقيقة أخرى قمينة بالتسجيل ، وهي أن الأوربيين كانوا أثناء اتصالهم بالعرب قبل ذلك عن طريق الأندلس وصقلية وفلسطين قد اقتبسوا بعض تقاليدهم العسكرية وتطبعوا بما راق لهم

من طباعهم ، وتحلوا بشمائلهم وتشبعوا بكثير من قيمهم الحضارية ، ونفروا من خشونة الإغريق الوثنية، وترتب على ذلك أنهم وجدوا في الأدب العربي ما يعبر عن نفس هذه الطباع والشمائل والقيم الجديدة التي أخذت تتأصل فيهم ... فكيف يقال ، والحال هذه ، إن الأدب العربي كان وقتذاك غريبا عنهم ولا يعكس طباعهم وأخلاقهم ؟ . .

وهناك سؤال يجدر طرحه والإجابة عليه : إذا كانت الثقافة العربية قد تزاوجت بالثقافة الإغريقية الوافدة عليها ، فلماذا ظلت مضادة لها في اتجاهاتها حتى بعد ذلك التزاوج ؟ وقد يحسن أن نعيد السؤال على نحو أوضح : ما هي العوامل التي كانت تطبع كل ثقافة تفد إلى جزيرة العرب بذلك الطابع الإنساني الواقعي الصادق ؟ . . .

قلنا إن النظام السياسي والوضع الاقتصادي في بلاد الإغريق هما اللذان طبعا الحضارة المصرية بالطابع اليوناني عند انتقالها إلى تلك البلاد . . . فهل حدث مثل ذلك في الجزيرة العربية ؟ هل كان وضع العرب الاقتصادي ، ونظامهم السياسي ، يطبعان كل ثقافة وافدة عليهم بطابعهما ؟ . . . لاشك في ذلك ، فهذه

قاعدة طبيعية لا تختلف ... إن قلة الواحات وعيون الماء فى الجزيرة العربية الصحراوية جعلتها مسرحا لتقاتل القبائل فى سبيل الفوز بخير الموارد ، وأصبحت الحروب القبلية ديدن العرب . ومن هذه المحنة نشأت خير الصفات العربية التى صقلت طبيعة العرب الإنسانية وهيأتها للصعود فى مدارج الحضارة ... وسيرد شرح ذلك فى حينه .



بذور الحضارة

إن عقلية العرب التى صفت صفاء سمائهم ، وتألقت تألق نجومهم فى سمائها الصافية . إن هذه العقلية الثاقبة المنقبة المتغلغلة إلى الأغوار ، المتسربة إلى الأطراف والحواشى ، هى التى طبعت ذهن علماء الغرب ، قبيل عهد إحياء العلوم ، بطابعها الفذ ، وهى التى علمتهم كيف يدرسون المعضلات ، ويحققون الشبهات ، ويحللون المشكلات ، وينقبون عن الأسباب الرئيسية للأمور ، ويستنبطون النتائج المترتبة عليها . إن هذه الميزة الذهنية . . . ميزة الدقة العلمية التى اكتسبها علماء أوربا من العرب — كما قلنا سابقا — هى التى مكنتهم من تحقيق كشوفها العلمية . . . غير أنهم لم ينجحوا فى ذلك إلا فى ظل حرية الفكر التى استافوا عبيرها العبق من الجزيرة العربية أيضا ، فهاموا بها هياما ، واستبسلوا فى النضال لانتزاعها من أيدى رجال الكنيسة المتعصبين المستبدين ، وما فازوا بها حتى تهيأت التربة الصالحة لغرس بذور حضارتهم .

بيد أن مهمة العرب فى المعاونة على بناء الحضارة الغربية

لم تقف عند هذا الحد ، فهم لم يغرسوا فى نفوس علماء الغرب حب حرية الفكر وتقديسها ولم يلقنوهم دقة البحث فحسب ، ولكنهم أمدوهم بعلم هو أساس الجانب المادىّ من الحضارة الغربية بحق... أمدوهم بعلم الرياضة ، أو بنظريات استحدثوها فى علم الرياضة ، ففتح ذلك لأوربا طريق التقدم العلمى فسيحا ممتداً إلى غير حد .

لا يكاد يجادل أحد فى أن الجانب المادىّ من الحضارة الحديثة يقوم أساسا على الرياضيات ، فهى ، أى الرياضيات كانت ولا تزال المفتاح الرئيسى حتى لمغاليق العلوم الطبيعية والجغرافية والهندسية وغيرها . بل لقد أخذ ديكارت يستعين بها لوضع فلسفة يفسر بها الوجود ، ثم اعتمد عليها برتراند راسل أخيرا لحل معضلاته الفلسفية ، وسبك معادلاته المنطقية . . . فإلى أى مدى أفاد العلماء الغرب من مبتدعات العرب الرياضية حتى استطاعوا بالدأب على الدرس والعمل المجهد إلى إطلاق الصواريخ والأقمار الصناعية ؟ ...

لقد ابتدع جابر بن حيان علم الجبر الذى سمى باسمه . وابتدع الخوارزمى — وهو عربى الثقافة والعقلية رغم أصله الفارسى — ابتدع اللوغارتم الذى سمى كذلك باسمه ، إذ كان الأوربيون يعرفون اللوغارتم باسم «الجورتمى» أى الخوارزمى .

ولن تنشط بي الحماسة إذا جاريت من يزعمون أن العرب هم الذين ابتدعوا الحساب ، وجزمت بأنهم هم أول من كتبوا الأرقام السهلة الحديثة ،وأدلل على ذلك بأن الكتابة في أوربا كالكتابة الإغريقية تتجه من الشمال إلى اليمين، وكان الطبيعي أن تتجه كتابة الأرقام المركبة هناك هذا الاتجاه أيضا، ولكنها على العكس ،تتجه من اليمين إلى الشمال ككتابة الأرقام العربية سواء بسواء . . . إن التاريخ لم يذكر لنا قوما تبحروا فى علم الحساب قبل قدماء المصريين الذين لم يبتدعوا قواعده وحسب ، ولكنهم طبقوها أروع تطبيق ، وقد تلقى الإغريق هذا العلم عن أساتذتهم المصريين سواء عن طريق العرب أو الفينيقيين ، وتبحر فيه فيثاغورس وتلاميذه ، وأضافوا إليه من القواعد الجديدة ما زاده قيمة وفاعلية ، ثم تلقفه العرب ثانية فحولوه إلى قوة ديناميكية فعالة فى تطوير العلوم بعد أن ابتدعوا الجبر واللوغارتم ...

يجمع مؤرخو الفلسفة الغربية على أن مؤلفات ديكارت هى التي حولت الفكر الأوربى إلى الاتجاه الحديث. ولسنا فى معرض تفضيل العناصر الجديدة الثورية التى اشتملت عليها أعمال هذا الفيلسوف ، ولكننا سنشير إلى حجر الزاوية فى التحول الفلسفى الديكارتى ... لقد تبحر هـذا الفيلسوف فى العلوم

الرياضية ، واهتدى إلى فكرة بسيطة كانت لها أخطر النتائج ، لقد خطر له أن يطبق قواعد الجبر على علم الهندسة — لا سيا فرعيه النظرى والميكانيكى — وعلى مستعصيات علم الحساب ، وقد وصل بذلك إلى كشف مغاليق تلك العلوم وتفسير أسرارها، بل استطاع أن يفلسفها ... ثم يفسر الوجود « فلسفيا » على ضوئها ... ومن ثم أقام صرح فلفسته التى تفسر الوجود تفسيراً ميكانيكيا . وهكذا نرى أن الفاسفة الغربية مدينة بتطوّرها الحديث للعرب .

يؤكد مؤرخو الغرب أن فلسفة ديكارت كانت نقطة انتقال الفكر الأوربى من عهد محاكاة الإغريق إلى عهد الأصالة والانطلاق ، ولكن أحداً من أولئك المؤرخين لم يذكر لنا فضل العرب على ديكارت ، أو مدى إفادته من علومهم التى نقرر نحن هنا انها هى التى فتقت ذهنه ومكنته من إقامة صرح فلسفته.

بيد أن أثر الفكر العربى ظهر فى أوربا حتى قبل ديكارت الذى عكس هذا الأثر بجلاء فى فلسفته . ولسنا نشك فى أن كوبرنيكس وجاليليو قد أفادا من بحوث العرب فى علم الفلك الذى تلقياه أيضاً من المصريين عن طريق الإغريق. وإذا كابر فى ذلك مكابر فإنه لايستطيع أن ينكر أن هذين العالمين اللذين

غيرا معتقدات العالم عن الكون قد استعانا بالجبر على حل ما اعترض دراساتهما من تعقيدات رياضية ... كذلك توصل « نيوتن » به وباللوغارتم إلى كشف القوانين الطبيعية التى لا نظن قارئا يجهل ما كان لها من قيمة فى تطوير العلوم الرياضية والطبيعية .

ومن أثر النتائج الباهرة التى أسفرت عنها تلك الكشوف العلمية المعتمدة على الرياضية ، أن آمن الأوربيون بالعلم ، ثم آمنوا بالعقل البشرى الذى ابتدع العلم ، واستطاع به أن يطور الحياة بنفسه ، بدل الاتكال على الطبيعة فى تطويرها ، وأن يقضى على خرافة القدرية ، ويمكن الناس من الثقة الكاملة بأنفسهم ، تلك الثقة التى ما كان للحضارة الراهنة أن تتوفر إلا بتوفرها وهذا ما حمل الفيلسوف الألمانى « كانت » على القول بأن الرياضة هى العلم اليقينى الوحيد ، أما باقى العلوم فتفكر فيها العقول ، وتختلف فى تقدير نتائجها .

ويستطيع المرء أن يستخلص مما تقدم أن فضل العرب على الأوربيين لم يقتصر على إمدادهم بمفاتيح علومه الحديثة فحسب ، ولكن تعدى ذلك إلى تنقية عقولهم من رواسب المعتقدات

الخرافية القديمة ، وحملهم على الإيمــان بالعلم ، والإيمان بقدرتهم على التحكم فى مصائرهم .

ومن أهم ما حفز التقدم الأوربى إلى الأمام ، كشف القارة الأمريكية ... ثم كشف رأس الرجاء الصــالح والوصول عن طريقه إلى جزر الهند الشرقية . إن هذه الكشوف لم تمدّ أوربا بأسباب الازدهار المادىّ فحسب ، ذلك الازدهار الذى رفع مستوى معيشتهــا ، وهيأ لها أنسب الظروف للتقدم الفكرى والأخلاقى والفنى ، ولكنها أشعلت الخيال ، وزادت من الثقة بالنفس ، والإيمان بالعلم ... وهل ينكر أحد أنها لم تكن لتتاح لولا « البوصلة » ، وهى اختراع عربى ، ولولا أصول علم الملاحة التى تعلمها الأوربيون من العرب ، ولولا الملاحون العرب الذين أرشدوا « فاسكودى جاما» إلى الطريق البحرى الموصل إلى جزر الهند الشرقية ، بعد أن كان قد توقف حائراً فى رأس الرجاء الصالح لا يعرف فى أى اتجاه يسير ؟ ... وهل من قبيل المصادفات أن يكون « خرستوف كولومبس » أصلا من أسبانيــا ، « وفاسكودى جاما » من الجزيرة الأندلسية ؟ وأن تزدهر الملاحة فى أسبانيا الأندلسية حتى تصبح هذه الدولة أكبر دول الملاحة فى العالم .

ولا يخال أحد أنى أقصد مما تقدم أن أنكر مساهمة الأوربيين فى إقامة صرح الحضارة الراهنة أو أن أزعم أن هذا الصرح لم يكن ليتاح له أن يقام لولا العرب ، بل لم يكن ليتاح إطلاق الأقمار الصناعية لولا جابر بن حيان والخوارزمى ... لا ، ليس هذا هو قصدى ... فلو أن العرب لم يحققوا ماحققوه لما عجز غيرهم عن تحقيقه على مر الحقب . ولكنى أقصد أن أقرر حقيقة ينكرها الغرب اليوم ... أقصد أن أنوه بالقسط الذى ساهم به العرب فى إقامة أساس الحضارة الراهنة ... إن العقل البشرى قمين أن يبتدع علمى الجبر واللوغارتم فى أى زمان تتوفر فيه الظروف المعينة على ابتداعهما ... ولو لم يهتد إليهما العالمان العربيان لاهتدى إليهما غيرهما . وكل ما لهذين العالمين من فضل هو سبق غيرهما إلى كشف ما كشفاه ... أما فضل الذين استخلصوا النتائج الكبرى من كشوف العرب العلمية ، فمن الشطط أن ينكره منكر .

وأقصد كذلك من هذا التنويه بفضل العرب أن أرد لشعوب الشرق — دون زهو وغرور — ثقتهم بأنفسهم ، وأن أحفزهم للعود من جديد إلى المساهمة فى بناء الحضارة العالمية بعزم وكفاءة جديرين بالسلف . وأن أظهر الرجل الأبيض المستعمر الذى

يريد أن يحتكر فضل تشييد الحضارة الحديثة أن أسلافه تلقوا أهم أصول العلم والتهذيب الراهنين من الأقوام الذين يحتقرهم اليوم.

إن الدور الذى لعبه العرب فى تاريخ الحضارة هو أنهم وضعوا أوربا التى كانت تعيش على فتات علوم الإغريق ... فى أول طريق التقدم الحضارى الحديث، وزودوها بأدوات النجاح فى الوصول إلى الغايات الحضارية . . أما هى فكان لها فضل التوفيق فى تحقيق تلك الغايات .

وإذا وجد بعض المتشيعين للفكر الأوربى شبهة التعصب فيما قلت، فما رأيهم فى علماء أوربيين ذهبوا فى الإشادة بفضل العرب على الحضارة إلى أبعد مما ذهبت إليه . إذ لم يكتفوا بذكر الدور الخطير الذى لعبه العرب فى إقامة الصرح الحضارى، ولكنهم قطعوا بأن هذا الصرح لم يكن ليقام لولا مساهمة العرب فى تشييده — ومن أمثلة ذلك ما قرره الأديب المؤرخ الفرنسى « روبير بريفو » فى كتابه « الشعراء التروبادور » صفحة ٢٠ : « كانت أوربا فى القرن الحادى عشر، والقرن الثانى عشر، تتجه إلى العرب باحثة عما استجد عندهم من صناعات وعلوم ... ومن فنون خاصة بالملاحة كانت السبب فى تطورها وتبدل حالها ... كانت أوربا تتجه إليهم منقبة عن

كشوفهم فى علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء . بل كانت تبحث عندهم عن آثار « أرسطو » وابن سينا ، وابن رشد . وكان علماؤها من أمثال «دانيال دى مورلى» و «ميشيل سكوتوس» و « دى جريمون » و « دوريلاك » و « وريمون لول » يلتمسون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم . ووجد « ريجيومونتانوس » عندهم المعارف التى مكنت «هنرى الملاح» و « فاسكودى جاما » و « خرستوف كولومبوس » من ارتياد المحيطات ، والوصول إلى أطراف العالم . وعثر « أديلهارد دى باث » فى قرطبة على النسخة الوحيدة فى العالم من مخطوط « أوسليد » الذى ظل يلقن للطلبة فى مدارس أوربا حتى عام ١٥٣٣ . وطاف كل من «أفلاطون لويزون» و«فيبرو ناتشى» فى أرجاء أسبانيا، ليتزودا من علوم الرياضة لاسيما الجبر والتقويم واللوغارتم . بل إن الكنيسة نفسها التجأت إلى العرب لتجد عندهم ما يعينها على إقامة صرح الفكر المدرسى ... وبحث كل من « ألبير الأكبر » و « توماس ألين » عن فلسفة العقيدة الكاثولوليكية نفسها فى بلنسية ، وعند الفارابى ... وفى الوقت الذى أنشد الشعراء التروبادور شعرهم على عتبة أسبانيا العربية صرح « روجر بيكون » فى أوكسفورد بأن وجود الفكر

الأوربى ، والعلم الأوربى ، كان مستحيلا لولا وجود المعارف العربية .

لقد دعيت أوربا فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت غارقة فى ظلمات الجهل طوال خمسة قرون ، وهى مدينة بكل مقوماتها إلى العالم الإسلامى ... »

وتمالك هذا الكاتب الضيق بتعصب قومه فصاح قائلا فى نفس الصفحة من الكتاب عينه : « ألا يجدر بنا أن نكون أكثر وعياً واستنارة فنتخذ موقفاً جديداً من العرب غير موقفنا الذى دفعتنا إليه الأفكار التى ظل الأكاديميون يرددونها وقتاً طويلا وهى ليست فى الواقع إلا وليدة التباسات قديمة ، وأوهام تاريخية أغمض أصحابها أعينهم عن الإسلام ، رافضين أن يقفوا على حقيقة علومه ومعارفه ، مستنكفين أن يعترفوا بفضله على المسيحية التى اتخذت الصبغة البربرية فى أوربا » .

وجاء فى كتاب « تاريخ المسلمين فى أسبانيا » للمؤرخ دوزى (ص ٣١ من المجلد الثالث) » لم يكن أمراء أسبانيا ، قبل استعادة بلادهم من العرب ، أقل همجية ووحشية من سادة البرانس المسيحيين . . . بل لم يكونوا يعرفون الكتابة والقراءة ، أو التعامل بالنقد . وكان من يريد منهم أن يجمع بعض الأرقام أو

يطرحها ، أو أن يقيس حدود أرضه من الأراضى . . . لا يجد بدأ من الاستعانة بعربى كى يحقق له ذلك » .

هكذا كان حال سراة القوم فى اسبانيا قبل اتصالهم بالعرب ومن المعلوم أن هؤلاء الإسبان كانوا أقل خشونة ووحشية من أمراء شمال أوربا ، وسراة قومها. ولم تتغير حال هؤلاء وهؤلاء إلا بعد زحف الحضارة العربية إلى بلادهم . ونحن لن نواصل الاستشهاد بأقوال الغربيين على صحة هذا القول ، ولكننا سندع الوقائع تتحدث عن نفسها فى الفصول التالية من هذا الكتاب .



صفات العرب الحضارية

لا ينفرد المتعصبون من مؤرخى الغرب بقولهم إن الحضارة الغربية وليدة الحضارة الإغريقية فحسب ، وإن فجر عهد إحياء العلوم بزغ على أثر نشر التراث الإغريقى العلمى والأدبى فى أرجاء دول الغرب .. نعم ، لا ينفرد أولئك المتعصبون بترويج هذه الأكذوبة ، ولكن بعض كتابنا نحن العرب ينافسهم فى ترويجها بغير وعى ، وغير معرفة ، ويدونها حتى فى كتب المدارس دون أن يشير بكلمة إلى فضل العرب ، وفضل قدماء المصريين على الحضارة الأوربية الحديثة . بيد أننا نكرر القول : بأن الغرب لم يحتذ الثقافة العربية احتذاء ، ولم يبن حضارته عليها وحدها دون أن يضيف إليها جديدا ، ولم يقصر فى تطويرها والوصول بها إلى المستوى الشاهق الذى بلغته ، ولكن الذى لا يجوز أن نغفل عنه ، ولا تعوزنا إقامة الأدلة على صحته ، هو أن حضارة الغرب لم تستمد عناصر وجودها وازدهارها من حضارة الإغريق فحسب ، ولكن من حضارة العرب أيضا وكانت هذه الحضارة الأخيرة هى التى دفعتها الدفعة

القوية إلى الأمام وهى التى حررت الأمم الغربية من رواسب الوثنية الإغريقية ، وأبدلت بمعتقدات العصر القديم ومثله وأفكاره وتقاليده معتقدات وأفكارا ومثلا وتقاليد جديدة أمدت دوحة الحضارة الغربية بأهم أسباب إيناعها وإثمارها ، وفتحت لها طريقاً جديداً للتقدم ، وأوصلتها بذلك إلى نقطة الانطلاق إلى الآفاق الجديدة .

وباستثناء من أشرنا إليهم فيما سبق من علماء الغرب الشرفاء الذين يضطلعون اليوم فى أمانة وإخلاص بالتنقيب عما كان للعرب من تأثير فى تطور الحضارة الغربية ، فإننا نجد زملاء لهم يطرقون نفس الموضوع ولكن كراهيتهم للعرب تحملهم على القول : بأن فضل هؤلاء على الحضارة الغربية ينحصر فى المحافظة على بعض تراث الإغريق الفكرى ، ونقله إلى أوربا . . . بيد أن واحدا من أولئك المفكرين توسط الطريق ، وهو المؤرخ الإنجليزى « توينبى » ، وقرر أن الدور الذى لعبه العرب فى هذا الصدد كان إيجابياً لاسلبياً . فهم لم ينقلوا الفكر الإغريقى إلى أوربا دون أن يمسوه ، ولكنهم شرحوه شرحا جلا غوامضه ، وعلقوا عليه تعليقاً أقال عثراته ، وأكمل نواحى النقص والتقصير فيه .

ولكن الذى أغفله توينبى وغيره من زملائه المؤمنين بتفرد

الرجل الأبيض الغربى ، هو أن فضل العرب على ذلك الرجل المتغطرس لا يقتصر على نقل التراث الإغريقى إلى أوربا مشروحا أو غير مشروح ، ولكن يتعدى ذلك إلى الجوهر الذى أقربه المنصفون من الغربيين ، وهو أن أوربا مدينة بحضارتها للعرب .. والفيصل بين الحق والباطل فى هذا الموضوع هو مناقشته واقعياً . فمثل هذه المناقشة هى الكفيلة بإحقاق الحق وإزهاق الباطل ...

إن أهم مايلفت نظر الباحث فى تاريخ أوربا خلال العصر الوسيط هو عجز المسيحية عن تحرير الفكر الأوربى من ربقة الفكر الإغريقى فى بحر الشطر الأكبر من ذلك العصر .. فبرغم اعتناق الأوربيين للمسيحية ، وإيمانهم بمثلها الفكرية والأخلاقية ، فقد ظلت الفلسفة الإغريقية مسيطرة على اتجاهاتهم الفكرية ، واحتفظت باستقلالها عن دينهم . . . ألم يكن رجال الكنيسة يستعينون حينذاك بأفلاطون وأرسطو فى تفسير أمور الدنيا ، ويضعون فلسفتهما ، كما يضعون معتقدات الدين المسيحى ، فوق كل مناقشة ؟ !ـــ إن هذه الخطة لم تعجز المسيحية عن أداء رسالتها فحسب ، لكنها سخرتها فى طمس الفكر الأوربى الناشىء ، أو تعطيل تطوره .

لقد عطل رجال الدين ملكة التفكير عند الأوربيين ، وكبلوا عقولهم بالنصوص الفلسفية وعقائد الدين ، وحظروا عليهم البحث عن أى حل لأية مشكلة إلا من بين ثنايا تلك النصوص والمعتقدات. وقد فطن القس الفيلسوف سانت اوجوستان (٣٥٣ — ٤٣٠ م) إلى عمق التناقض القائم بين المسيحية والفلسفة الأفلاطونية ، فبدلا من أن يناقش هذا التناقض ، وينقب عن الحقيقة ، جنح إلى المهادنة ، وحاول أن يعالج ذلك التناقض فى كتابه « مدينة الله » بالتوفيق بين تلك المذاهب المتناقضة ... لقد حاول فى ذلك الكتاب ، وفى كتاب آخر له سماه « الاعترافات » ان يوفق بين الأفلاطونية والعقيدة المسيحية ... وكذلك بين العقل والإيمان .

ولكن شأن العرب فى هذا كان غير شأن الأوربيين ، فقد درس مفكروهم — كما قلنا — فلسفة أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة الإغريق ، وامتحنوا المشكلات العقلية التى أثاروها ، والأسئلة الحائرة التى طرحوها دون أن يوفقوا إلى إجابة عليها تشفى الغليل ، ثم نظروا إلى دينهم ، أى إلى الدين الإسلامى ، وامتحنوا موقفه من تلك المشكلات ، ونظرته إليها ، ووسيلته إلى حلها ، وراحوا يناقشون ذلك كله مناقشة

جريئة حرة تعرضت فى بعض الأحيان لموضوعات دقيقة كان طرقها محظورا . . . فقد تساءلوا مثلا عن أزلية الصفات الإلهية وأزلية القرآن ، وحرية إرادة الإنسان وما يترتب على التسليم بهذه الحرية من تناقض مع بعض الأصول الدينية . . ولن أطيل فى هذا . إنما يكفى أن أقرر هنا أن العرب هم أول من ناقشوا المسائل الدينية مناقشة حرة ، وقد عرفت بحوثهم فى هذا الشأن باسم « علم الكلام » وعرف أئمة هذا العلم باسم « المتكلمين » — وما انتقلت مؤلفات أفلاطون وأرسطو من أيدى العرب إلى الأوربيين مشفوعة بتعليقات « المتكلمين » حتى أحدثت تلك التعليقات أثرها فى عقول مفكرى أوربا الذين كانوا قد أخذوا يفيقون من سباتهم ويضيقون بالأغلال التى كبل بها رجال الدين فكرهم ... ولم يلبثوا أن تشجعوا ، وراحوا يحذون حذو « المتكلمين » فى مناقشة مسائل الدين ، وتدبيج المصنفات فى ذلك ...

وقد يسأل سائل : وما أثر ذلك فى نشأة الحضارة الغربية وازدهارها ؟ ؟ .... ليست عصور الظلام إلا العصور التى تفرض فيها معتقدات معينة على الفكر ، وتحظر عليه مناقشتها ، فالفكر فى هذه الحالة يتعطل ، ثم يأسن ويتعفن . أما أهم مايميز عصور

الازدهار فهو حرية الفكر . . . حرية مناقشة جميع المشكلات التى تهم الإنسان وتشغل باله ، فمن احتكاك المناقشة الحرة ينبثق النور الذى يجلو الحقائق، أو يجلو جانباً منها .. أو يشحذ الفكر ، على أقل تقدير ، وينميه ... وبذلك تتحرك عجلة التطور الحضارى ، ثم تسرع فى خطاها .

وبانتشار مصنفات « المتكلمين » فى غرب أوربا اشتعلت شرارة الثورة الفكرية على رجال الدين الذين استبدوا بالفكر الأوربى ، وشلوا حركته ردحا من الزمن . وقد استفحلت تلك الثورة ، وحطمت معاقل استغلال الفكر ، وما زالت تواصل انتصارها حتى استطاعت أن تحقق مبدأ فصل العلم عن الدين ... هذا المبدأ الذى مكن العلم الأوربى من تبوؤ المكانة التى وصل إليها اليوم ، ومن المساهمة بأوفى نصيب فى بناء الحضارة الراهنة . ومما مكن علماء الغرب وحكماءه وأدباءه من الارتقاع بالعلوم والبحوث الفكرية والأدبية إلى المستوى الحضارى الذى وصلت إليه ، ما تميزت به مؤلفاتهم من تدقيق فى التحقيق العلمى ، ومن تطرق التحليل إلى الأغوار والأطراف . وكل من يطلع على تحقيقات المتكلمين العرب الفلسفية ، وعلى بحوث العرب العلمية يجد فيها المصدر الذى نبعت منه تلك الدقة الأوربية العلمية التى

لم تظهر إلا بعد انتقال المؤلفات العربية إلى أوربا . . . وإذا جادل المجادلون فى هذا — فما قولهم فى التاريخ العربى ؟ . . . كان مؤرخو الإغريق يدونون فى مؤلفاتهم كل ما يصل إلى آذانهم من حكايات وروايات دون أن يستوثقوا من صحة مصادرها ولكن مؤرخى العرب جاءوا بعد ذلك فتحروا الدقة العلمية فى تحقيق الوقائع التاريخية التى يمتحنونها ، واستخلاص صحيحها من زائفها ، فعلموا مؤرخى أوربا الذين كانوا متأثرين بمؤرخى الإغريق أهمية الصدق التاريخى ، وكيف يكون البحث فى سبيل استخلاصه . . . وإذا كان بعض النقاد يأخذ على الأدب العربى قصوره فى تحليل الخوالج البشرية ، والمشكلات الأدبية ، وفى التغلغل إلى تفصيلاتها — فمرجع ذلك إلى فهم العرب الخاطئ للبلاغة ، إذ ظنوا أنها لا تتحقق إلا بالإيجاز ، أو بتطبيق قاعدة « ما قل ودل » ، بيد أن أدب الغرب لم يتأثر بهذه القاعدة فاستطاع أن يفيد من إفاضة العرب فى بحوثهم الفكرية . . .

يتضح مما قدمناه بإيجاز أن العرب تميزوا بصفات صبغت مؤلفاتهم العلمية والأدبية بصبغتها ، وسمت بها إلى مستوى أسمى من مستوى سابقاتها ، بل نقلتها إلى عتبات مرحلة جديدة مهدت لبزوغ الحضارة الأوربية . لقد شقت هذه المؤلفات طريق البحث

العلمى الحر الذى كان له الفضل الكبير فى قيادة أوربا إلى آفاق حضارتها الحديثة . . . هذه الصفات هى التحرر من الخرافات والأوهام . والنظر إلى الأمور نظرة واقعية ، ومحاولة فهمها على حقيقتها بتمحيصها وتقليبها على كافة وجوهها ، والبحث عن مصادرها . ومن أهم تلك الصفات النزعة إلى الحرية ، والمجاهرة بالحق دون خوف أو تهيب ، هذه الصفات هى التى تلقنها علماء الغرب وأدباؤه عن العرب ، وتأثروا بها فاطرحوا خرافاتهم القديمة ، واتبعوا فى تأليفهم العلمى ما اتبعه العرب من استقراء وتمحيص واستدلال واستنباط . . . وفى تأليفهم الأدبى من وصف صادق للواقع ، وتنقيب عن دقائقه ، وتحليل دقيق لنقائضه .

* * *

وبرغم أن العرب فى الجاهلية ، وفى مطلع الإسلام ، كانوا لا يزالون يعيشون فى ظل النظام القبلى ، فقد تحلوا حينذاك بصفات مدنية لم يتحل بمثلها أقوام تخطوا المرحلة القبلية . . . كانوا يتحلون بالنخوة والدماثة واللطف ورقة الحاشية والإيثار والمروءة والنجدة والعفو عند المقدرة ، إلى آخر تلك الصفات

التى يحاول الرجل المتحضر اليوم أن يتصف بها ، ويحسب أنها ثمرة الحضارة الأوربية الحديثة ، وآية من آياتها .

ومن صفات العرب القدامى أيضا عشق الجمال فى المرأة ، وفى غيرها من ظواهر الحياة ، بل تقديس الجمال وتنزيهه ، وقد ترتب على ذلك أن أعز العربى المرأة وكرمها وأعلى قدرها فمكنها من أن تشعر بكرامتها ، وتستمتع بحريتها ، وتغترف من الثقافة لتزداد قدرا ، وتلعب دورها الحاسم فى بناء صرح الحضارة .

ولعشق الجمال هذا فضل أكبر فى تخليص العربى من فظاظة الهمجية ، ولوثة الجاهلية ، وفى حفزه إلى إنتاج الآيات الجمالية فى أدبه ، وفيما يحيط به نفسه من مظاهر المدنية والعمران .

ولا يتسع المجال فى هذا الكتيب للاستشهاد بالنصوص على صحة ما ذكرنا . . . ومن يود التحقق بنفسه من تلك الصحة عليه أن يقرأ شعر العرب وأنباءهم وحكاياتهم وقصصهم . . .

وقد نقلنا فى آخر الفصل السابق وصف دوزى لهمجية أمراء أسبانيا والبرانس قبل اتصالهم بالعرب . . . ونحن نتم الآن قول دوزى فى هذا الصدد (نفس المرجع) : « لم يكد أمراء أسبانيا يسترجعون بلادهم من العرب حتى أحاطوا أنفسهم

بكل مظاهر الأبهة والفخامة العربية ، وأصبح بلاط قشطالة مجتمعا للشعراء كسوق عكاظ » . . .

هذه هى الصفات التى سمت بالعرب ، قبل غيرهم ، ونقلتهم من المرحلة شبه الهمجية ، أو المرحلة غير المهذبة ، إلى مرحلة التهذب الحضارىّ . وسنتكفل فى فصل تال ببحث العوامل التى غرست فى العرب تلك الصفات قبل غيرهم من الأمم .



المرأة العربية والحضارة

تنظر المرأة الأوربية اليوم إلى المرأة العربية نظرة ازدراء فهى تتصورها أمة تعيش حبيسة بين جدران البيوت مع زميلاتها الحريم لتبهج الرجل ، وتحظيه ، وتقوم على خدمته . (« بيرديه » فى كتابه « القصة عبر سبعة قرون ») .

وقد غفلت المرأة الأوربية التى تخال أنها بلغت ذروة التحضر ، وانفردت به . . . غفلت عن حقيقة لو فطنت إليها لنهنهت من كبريائها ، فهى لم تبتدع مقومات تحضرها ، ولكنها ورثتها عن المرأة العربية .

ولست أحسب أن قارئاً عربياً يجهل اليوم ما كان للمرأة العربية ، منذ الجاهلية ، من مكانة مرموقة بين قومها ، مستمدة مما كانت تتحلى به من رجاحة عقل ، وسعة علم ، ومتانة خلق ولكننا سنلمع مع ذلك إلى شىء مما قاله بعض مؤرخى الغرب عنها ، لعل ذلك يقنع المنكرين . . .

ورد فى كتاب « المعلقات السبع الذهبية » صفحة ١٤ ،

للأخوين «آن وويلفرد بلنت» ما يلى : « كانت خيام العرب ، حتى فى الجاهلية ، تضم سيدات أديبات مثقفات ، ينظمن الشعر ، ويجلسن فى مقعد التحكيم بين فحول الشعراء » .

وجاء فى كتاب « الشعراء التروبادور » للمؤرخ المنصف « روبير بريفو » ما يأتى :

« ليس هناك خطأ أفضح من الظن بأن العرب لم يعرفوا من الحب إلا لونه الجنسى الشهوانى . . ومما يؤسف له أن هذا الخطأ شائع بيننا . . . إن الحب المثالى المبنى على تقديس المرأة من أهم تقاليد العرب الموروثة عن الجدود الأقدمين ، بل إن التعلق الحماسىّ بالقبيلة غرس فى نفس العربى تقاليد الفروسية التى سمت به عن الدنايا ، وبثت فيه الإخلاص للمرأة ، وحملته على احترامها ، وقد انعكست هذه المشاعر فى الشعر العربى التقليدىّ . . . »

وتطور الحب العذرىّ حتى تمخض عن « العشق الإلهى » . ومن ثم نشأت الصوفية التى نزهت المشاعر الإنسانية عن كل ابتذال ، ورأت فى الحب منبعاً للإيمان والخير والنبل ، بل منبعاً للفضائل والمعارف أجمع . وقد قال « جيبون » فى هذا الصدد : إن

الصوفية لا ترى العشق غاية فى ذاته ، ولكنها تراه الوسيلة المؤدية إلى المعرفة ... »

ولن نتوسع فى شرح ما تقدم ، فإن ما ذكرناه يكفى للدلالة على ما نرمى إليه . فالمستوى السامى الذى ارتفعت إليه مشاعر العرب العفيفة الطاهرة يعيننا على تصور التقدير الذى حظيت به المرأة العربية ، ويفسر ما أحيطت به من تكريم وتبجيل أعاناها على احترام نفسها ، والاستزادة من أسباب تقدير الناس لها ، كما يدحض الرأى الأوربى العام فيها .

فمن العرب تعلم الأوربى كيف يعز المرأة ، ويستوحى من جمالها أسمى التصورات ، ويستسلم لأنبل المشاعر ، بعد أن كان لا يعرف من ألوان الحب إلا ذلك اللون الجسدى الذى ورثه عن همجية الأولى ، وتلقن فنونه عن الإغريق . ولو ألمت المرأة الأوربية بالحقيقة لأدركت أنها مدينة بالحرية التى نعمت بها ، والمكانة التى سمت إليها للمرأة العربية ، بل لعلمت أنها مدينة لها بأكثر مما تقدم ، فالمرأة العربية لم توفر لها ماذكرناه فحسب ولكنها أمدتها كذلك بفنون الأناقة والرشاقة والدماثة التى جعلت منها امرأة متحضرة بحق . وفيما يلى طرف من أفضال المرأة العربية عليها .

كانت المرأة فى الجزيرة العربية ترفل فى الدمقس والحرير ، بينما كانت الأوربية ترتدى الملابس الكتانية الخشنة . . .
قال الشاعر الجاهلى « المنخّل اليشكرىّ » :

الكاعب الحسناء تر
فل فى الدمقس وفى الحرير ...

وقال عمر بن أبى ربيعة بعد ذلك :

وقامت إليها حرتان عليهما
كسا آن من خز دمقس وأخضر

وكانت المرأة العربية تتجمل بالأردية الشفافة :

ولبس عباءة وتقر عينى
أحب إلىّ من لبس « الشفوف »

وكانت المرأة العربية تتحايل لتزداد جمالا ، كانت تتأنق فى مشيتها كما تفعل المرأة الأوربية اليوم لتنال الحسن بالحيلة ، بعد أن كانت خشنة الحركة ، غثة الإيماءة ، شوهاء الخطوة ...
قال المنخل اليشكرى يصف مشية المرأة فى الجاهلية :

ودفعتها فتدافعت
مشى القطاة إلى الغدير

وقال المتنبي بعد ذلك :

تَـشَبَّـه الخفرات الآنسات بها
في مشيها ، فينلن الحسن بالحيل

وقال آخر :

هيفاء ميساء مصقول عراقبها
تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوجل

واللغة العربية تنفرد بين لغات العالم بإطلاق أسماء مختلفة على المشي الرشيق الأنيق . فأنت لا تجد غير كلمة واحدة تعبر بها كل لغة عن حركة المشي ، سواء أكانت التي تمشي امرأة أم رجلا ، أما العربي فيصف المرأة حين تمشي بقوله : «تتثنى» و «تتأود» و « تتبختر » و « ترفل » وغير ذلك من الكلمات التي تصور تأنق العربية في مشيتها ، وتنطق بما كان لذلك من أهمية انعكست في اللغة نفسها .

كانت المرأة العربية تتجمل بأصباغ الوجه ، وتبذل جهدها لتضفي على نطقها عذوبة وطلاوة ... قال المتنبي منكرا التحضر ، ومؤثرا عليه البداوة ، بيد أن إنكاره يثبت وجود ما ينكره :

نفسي فداء ظباء ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب

وكانت تجيد التحدث ... قال كثير :

مخضبة الأطراف ود جليسها

إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

وقال آخر :

رهبان مدين والذين أراهمو

يبكون من خوف العذاب هجودا

لو يسمعون كما سمعت حديثها

خروا لعزة ركعا وسجودا

ولها ذوق رفيع فى التزين . . قال كثير أيضا :

مخصّرة الأوساط زانت عقودها

بأحسن مما زينتها عقودها

وهى لم تكن مجرد سلعة يفوز بها الرجل القوىّ ، أو الزوج الموسر ، ولكنها كانت تلعب بقلوب الرجال :

يغنّيننا حتى ترف قلوبنا

رفيف الخزامى بات طل يجودها

كانت تصمى قلوب الرجال بنظراتها الساحرة ... قال الشاعر :

رمتنى بلحظ لو كميا رمت به

لبلّ نجيعا نحره وبنائقه

وكان العربى يتهدج لنظرات العيون العزبية الساحرة ، ويقدرها حق قدرها :

أليس قليلا نظرة إن نظرتها
إلىّ ... وكلا ليس منك قليل

وقال عمر بن أبى ربيعة :

وترنو بعينيها إلىّ كما رنا
إلى ربرب وسط الخميلة جؤذر

ونظرة الغادة العربية تسيل الدموع لفرط عذوبتها :

ومما شجانى أنها يوم أعرضت
تولت وماء العين فى الجفن حائر

فلما أعادت من بعيد بنظرة
إلىّ التفاتا أسلمته المحاجر

والعربية الحسناء تأسر القلوب بإشارتها اللطيفة ، وإيماءتها الرقيقة :

وماذا عليها لو اشارت فسلمت
علينا بأطراف البنان وأومت

والشاعر يتحسر حين تبخل عليه بمثل تلك الإشارة :

منعت تحيتها فقلت لصاحبي

ما كان أ كثرها لـنا واقلها !

والفتاة العربية الأنيقة تعنى حتى بتصفيف شعرها :

وكسّر الشّعر واوات ورجله ...

وكانت المرأة الأوربية تحجم عن الاستحمام ، متخذة من قذارة الجسد دليلا على طهارة النفس والزهد فى الرجال ، بينما كانت المراة العربية تصون جمالها عن ان تلوثه القذارة ، وتعلم حق العلم الا علاقة بين العفة والاتساخ . . . كانت تحرص على الابتراد كلما اتيح لها ذلك . قال المتنبي :

... ولا خرجن من الحمام مائلة

اوراكهن صقيلات العراقيب

وقال آخر :

ولقد قالت لجارات لهـا

وتعرت ذات يوم تبترد

أكما ينعتنى تبصرننى

عمركن الله ام لا يقتصد ؟

وامتازت المرأة العربية بدقة خصرها ، وامتلاء صدرها

وعجزها وأفاض الشعراء العرب فى وصف ذلك - ومما قيل فى ذلك :

ابت الروادف والثدىّ لقمصها
مس البطون وان تمس ظهورا
وإذا الرياح مع العشىّ تناوحت
نبهن حاسدة وهجن غيورا

وقيل ايضا :

بيضاء باكرها النعيم فصاغها
بلباقة فادقها واجلها

ومن ذلك البيت المشهور :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة
ما عابها قصر يوما ولا طول

وقد ترامى صيت قوام المرأة العربية اللدن المتأود إلى المرأة الأوربية فبذلت جهدها للتشبه به ، ولبست لذلك المشد الذى يضغط خصرها ، ويبرز صدرها . ووضعت تحت زنارها قفصا عريضا من السلك لينفش رداءها الأسفل (لم تقلع عن لبس هذا القفص إلا فى أواخر القرن الثامن عشر) .

وحاكت المرأة العربية حتى فى لبس الخمار أو النقاب .

فالأوربية الأنيقة لا تزال تضع إلى اليوم نقابا شفافا ينسدل من قبعتها إلى ما يحازى طرف انفها ....

ولم يبق علينا الآن إلا أن نعرف : أتمّ توافق هذه القيم الحضارية بين المرأتين العربية والأوربية مصادفة ؟ أم عن طريق توافق الخواطر ؟ أم تم محاكاة متعمدة ؟ ...

إن الدولة الإسبانية التى قامت فى بلاد الأندلس بعد انحسار العرب عنها ورثت الحضارة العربية — أو بعبارة أدق ، ورثت الحضارة الأندلسية المتولدة من امتزاج الحضارتين العربية والإسبانية الرومانية القديمة . بيد أن الجدير بالتنويه هو أن الطابع العربى كان الغالب على هذا المزيج الحضارى .

صعدت هذه الدولة الإسبانية حثيثا فى سلم التقدم بعد كشوفاتها الجغرافية ، وامتلأت خزائنها بالذهب الأمريكى ، وتضخمت قوتها العسكرية ، واشتد سلطانها ، فجذبت بذلك انظار الدول الأوربية الغربية ، وبهرتها بمقومات حضارتها ، فحاول سادة هذه الدول — وكانوا وقتذاك متعطشين إلى المزيد من أسباب الأبهة والجاه — أن يحيطوا أنفسهم بمثل مظاهر عزها وترفها ، ويقتبسوا اساليب حياتها الحضارية ، ولما أعوزهم المال رأوا أن يغترفوه من المورد الذى تغترفه منه ، فتتبعوا

خطاها فى البحث عن مستكشفات جغرافية جديدة ، واحتاج ذلك إلى توسع فى الإنتاج الصناعى لبناء سفن الكشف والفتح والغزو ، ولتجييش الجيوش وتزويدهم بالملبس والعتاد . فنمت بذلك طبقة التجار ، ورؤساء الحرف الصناعية ، وكثر بالتبعية عدد الأطباء والمحامين والمهندسين والمشتغلين بالفنون والآداب ، وتهيأت بوجود تلك الطبقة النامية — ظروف ملائمة لزيادة ازدهار الثقافة الإنسانية الجديدة الوافدة من إسبانيا .

كان ملوك أوربا وأمراؤها يسكنون القلاع الغليظة الجدرار ، المكفهرة الحيطان ويحيطونها بخنادق عميقة كثيرا ما كانوا يطلقون الماء فى قاعها ، ليعوقوا هجوم الأعداء فيتعطن ذلك الماء الآسن ، ويزكم عطنه الأنوف . ولم يعرفوا من أنواع الرياش إلا ان يكسوا غرف قلاعهم وردهاتها بمختلف انواع الدروع والسيوف والرماح ، وإلا أن يقيموا فى أركانها أردية الزرد .... وفى هذه الأثناء كان أمراء العرب فى الأندلس يسكنون قصورا تنطق بسموهم الحضارى .... أقاموها على غرار قصور بغداد فى عهد العباسيين ، وقصور القاهرة فى عهد الطولونيين ، وكانوا يزينون حيطانها من الخارج بالنقوش الملونة البديعة ، ويكسونها من الداخل بأثمن الطنافس المحلاة بالأشكال

المزخرفة الرائعة ، ويملأون غرفها وردهاتها بأفخر الرياش ، وينشئون لها — بدل الخنادق — حدائق غناء حالية بتماثيل أسود وفهود تصب افواهها الماء فى احواض ارضها وجدرانها من الفسيفساء .... وقد حركت قصور العرب هذه فى الشرق والغرب خوالج شعرائهم فوصفوها فى شعر دل على ان نشاط الأدب العربى لم يتخلف عن غيره من اوجه النشاط الحضارى العربىّ . وهذا الشعر المعروف يغنينا عن الإسهاب فى وصف تلك القصور وغيرها من الآثار العمرانية العربية .

سكن ملوك أسبانيا وأمراؤها قصور الأندلس العربية بعد ان خلت من اهلها ، ولم يلبثوا أن بنوا قصورا جديدة على غرارها . ثم حاكاهم ملوك فرنسا وامراؤها فى ذلك فسكنوا القصور بعد القلاع والحُصون . وسرت العدوى إلى انجلترا وألمانيا وإيطاليا وغيرها فتبارى امراء تلك البلاد فى بناء أجمل المنازل ، وإنشاء ابهى الحدائق ، ومازالوا يدخلون على فن البناء من المبتدعات المعمارية والزخرفية ما مكنهم فى النهاية من تشييد قصور التويلرى وبوكنجهام والكريملين وغيرها من تلك الدور التى تعد تحفا فنية تنطق بما وصلت إليه الحضارة الأوربية فى هذا المضمار .

وانتعش العمران ، واتسعت المدن بفضل الاتساع الصناعى والتجارى اللذين ذكرنا بعض اسبابهما ، واخذ الاهتمام بتحسين السكن يسرى بنسب متفاوتة ، من طبقة الأمراء والأشراف إلى الطبقة الجديدة التى كانت تزداد ثراء وعزة ، والتى قدر لها ان تصبح الطبقة البورجوازية الوارثة لأمراء الإقطاع .

وتحقق تقدم مطرد سريع فى هذه الناحية الحضارية الهامة ، وهى ناحية العمران . وسار إلى جانب هذا التحسن فى فن البناء تحسن يقابله فى تأثيث المساكن ، وارتفع مستوى الذوق الذى عاد فأثر فى تحسين الأبنية وتجميل اثاثها ، واستمر هذا التحسن دواليك فى مستوى الذوق من ناحية ومستوى جمال البناء وملحقاته من ناحية أخرى ، حتى وصلت مرافق الحياة الحضارية إلى ما وصلت إليه من رقى ، واثر ذلك كله فى الفكر والسلوك ، وتمخض عن القيم الحضارية الحديثة .

ويعنينا مما تقدم ان أسبانيا أصبحت اكبر دول اوربا عقب جلاء العرب عنها ، ولم تخشها سائر دول اوربا وقتذاك ، وتخطب ودها فحسب ، ولكنها اخذت ترسم خطاها فى مضمار الحضارة ، وتحاول محاكاتها . ونشط هذا الترسم ، وهذه المحاكاة فى ميدان الأناقة النسوية ، وتتبعت نساء البلاط فى كل

دولة من دول اوربا آخر مبتكرات تلك الأناقة في البلاط الأسباني ، ونقلتها عنهن نقلا ، ثم اخذت هذه المبتكرات — وهي في الواقع تراث المراة العربية التي استوطنت اسبانيا — تتسرب من نساء قصور الملوك إلى نساء الطبقات الراقية ، ثم من هؤلاء إلى نساء الطبقات المتوسطة فمن هذه الطريقة اغترفت نساء اوربا فنون نساء العرب في التجميل والتطرية ، وسرعان ما تحضرن فساهمن بأكبر قسط في إقامة مسرح الحضارة الأوربية .

وقد وصف كثيرون من مؤرخي العرب الشمائل والطباع الجديدة التي اتصف بها أمراء الأسبان الذين حلوا محل العرب في أسبانيا بعد إجلائهم عنها ، ونزلوا في قصورهم ، ومارسوا الحياة الحضارية التي مارسوها .. ووصف اولئك المؤرخون كذلك تأثر المراة الأسبانية بالمراة العربية ، ثم تسربت القيم الحضارية العربية كافة من أسبانيا إلى جنوب فرنسا ... ونذكر هنا ما يحضرنا من شواهد على ذلك :

جاء في كتاب (التاريخ المعاصر) للمؤلف الفرنسي القديم « راول جلابيه » ما يلي :

« كان سادة شمال اوربا خشني المظهر ، غلاظ القلوب ، قساة النظرات ، طوال اللحى .. بينما اصبح سادة الجنوب ،

بعد اتصالهم بالعرب يتأنقون فى ملبسهم ، ويحيطون انفسهم بمظاهر العز والحضارة » ¹.

وفى الصفحة ٧٤ من كتاب بريفو السالف الذكر ، قال المؤلف يصف مدى تأثر المراة الفرنسية بالمراة العربية :

« لقدتغيرت حال سيدات القصور فى الجنوب ، فهن لم يعدن كما كن من قبل ، اميرات ضيقات العقول ، يحيط القساوسة بهن طوال النهار ، بل أصبحن يلعبن الدور الأول فى محيطهن ، ويتمتعن بتقديس الرجال ... ولقد اتيحت لهن اسباب الأناقة ، فمن الحرير ومختلف انواع الأردية والعطور الواردة لهن من الشرق العربى ، إلى الأصباغ التى لم يتورعن عن التجمل بها ، إلى غير ذلك من أسباب التطرية والأناقة . وقد اشعلن بذلك نار الحسد فى قلوب نساء الشمال ».



تقاليد الفروسية العربية

يعترف مؤرخو الحضارة الأوربية بأهمية ما أحدثته تقاليد الفروسية من أثر فى التطور الحضارى الأوربى ، ومن أقدم المؤلفات التى تحدثت فى ذلك كتاب « شجرة المعارك الحربية » الذى وضعه القس الفرنسى « أونوريه بونيه » فى أواخر القرن الرابع عشر . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى عنايته بتوضيح أثر تقاليد الفروسية فى تطوير قوانين الدول الأوربية وتهذيبها . وقد رأى « لوجوفتيل » أن الوطنية تولدت من تقاليد الفروسية وقد قال مامعناه «إن أسمى عناصر الوطنية وهى روح التضحية ، والتشوف إلى إحقاق الحق ، وحماية المظلوم... نبتت أصلا فى تربة الفروسية» وقال الدكتور «جوهان هويزينجا » فى كتابه « تقلص العصور الوسطى » ما يلى : « إن الأحلام التى تراود الإنسان عن حياة أسمى ، لهـا قيمة ذات أهمية حقيقية فى تاريخ التطور الحضارى » إلى ان قال : « إن الوقوف على هـذه الأهمية يتطلب تقدير ما أحدثته معتقدات الفروسية من أثر فى ميادين السياسة والحرب قبيل نهاية العصر

الوسيط » ... وقال فى موضع آخر من كتابه المذكور :
« ومعتقدات الفروسية لم تمت مع ذلك دون أن تؤتى ثمارها فقد
وضعت منهجاً لقواعد الشرف ومدلولات الفضيلة وكان لها اثر
ملحوظ فى تطور القوانين ... إن قوانين الأمم الاجتماعية
والحربية نبتت فى مجاهل القدم . ولكن تقاليد الفروسية هى
التى نمت فيها الحيوية والازدهار » ولسنا نحسب أننا فى حاجة
— بعد ما تقدم — إلى مزيد من الاستشهاد ... ولكن المؤلم
ان اغلب مؤرخى الغرب لم يروا اية صلة بين تقاليد الفروسية
الأوربية التى احدثت الأثر الكبير فى تطور اوربا الحضارى ،
وبين تقاليد الفروسية العربية فبعضهم يزعم أن الغربيين ورثوا
هذه التقاليد عن الإغريق . ويزعم بعضهم انها ثمرة تعاليم
المسيحية وما اشد ضلال هؤلاء وهؤلا !

إن التربة العربية هى التى أنبتت بذور تقاليد الفروسية الأولى
ولهذه الحقيقة الواقعية أسباب ... وعليها ادلة وشواهد .
فأما الأسباب فسيرد ذكرها فى موضع آخر من هذا الكتاب .
واما الأدلة والشواهد فيتحصل أهمها فيما يلى .

من يستعرض الملاحم الإغريقية التى تسرد سير ابطال
اليونان القديمة ، وترسم مختلف الصور لمغامراتهم البطولية يجدها

لا تتحدث ، إلا عن الشجاعة البدائية الوحشية ، والحب الجسدى الأثر . اما تقاليد الفروسية التى تتحدث عنها فلا يبدو لهـا فى تلك الملاحم اثر . ومن غير المعقول ان يكون ابطال اليونان القديمة متحلين بها ، ولا ينعكس ذلك فى الأعمال الأدبية المذكورة . وهذا يدحض قول من يزعمون ان تقاليد الفروسية الأوربية التى ازدهرت فى اواخر القرن الوسيط موروثة عن الإغريق .

اما تعاليم المسيحية فتبشر حقاً بالرحمة والإيثار والتضحية وغير ذلك من العواطف النبيلة . ولكنها تختلف عن تقاليد الفروسية فى أن معتنقها المتشبع بروحها يقف من الملمات موقفاً سلبياً مستنداً إلى التسامح والغفران بينما الفارس المتشبع بتقاليد الفروسية العربية يقف من الشدائد موقفاً إيجابياً ينصر فيه الحق على الباطل بحد سيفه ... ولو صدق الذين ينسبون تقاليد الفروسية الأوربية إلى تعاليم المسيحية لأحدثت تلك التعاليم اثرها منذ القرون الميلادية الأولى، ولما تاخرظهورها إلى القرن الثانى عشر الميلادى .

وفى قصة الفارس دون كيشوت المشهورة دليل حى على صحة ماتقول فلو اننا ابعدنا عن ذلك الفارس اللوثة التى الصقهابه المؤلف

لتحقيق هـدفه من قصته — وهو تصوير مخبول يتشبث بأذيال الماضي ، ويحسب أنه يعيش في زمن ولى واندثر — لوجدنا أن دون كيشوت يمثل الفارس العربي القديم ، وان تقاليد الفروسية الأوربية التي يعتنقها ويناضل في سبيلها هي بعينها تقاليد الفروسية العربية . ألم يكن يجابه المكاره ، ويتعرض لألوان الأذى ، باسم حبيبته وفي سبيلها ،لغوث المظلوم ، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، واجتثاث الشرور من جذورها ؟... وشعر الحماسة والفخر في عهد الجاهليين ، وفي مطلع الإسلام يبرز لنا هـذه المعاني في أجلى صورها ؟... وها هي ذى قصة عنترة العبسي تصور لنا الطور الأول لتقاليد الفروسية العربية الم يخض ذلك الفارس العربي القديم غمـار الحروب باسم حبيبته ، وفي سبيل الدفاع عنها ، وتاديب الطامعين فيها :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وحد البيض يقطر من دمى ؟
ووددت تقبيل السيوف لأنهـا
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

الم يتجشم الأسفار ، ويجوب الأمصـار ، ويتعرض لموارد الهلاك ، كيما يحقق امنية لحبيبته ، او يجيب لها طلباً ؟...

وهل بيننا من لم يقرأ قصة الحروب الصليبية ولم يعرف موقف العرب وموقف الفرنجة منها ؟ ... لقد اعترف كثيرون من كتاب أوربا المنصفين بما كان من فرق شاسع فى بدء نشوب تلك الحروب بين تقاليد الفروسية العربية والأوربية ، ثم بما لحق بهذه التقاليد الأخيرة من تغير، نتيجة لاحتكاك فرسان الغرب بفرسان العرب .
لقد تعلم أولئك من هؤلاء المحافظة على أرواح الأسرى ، وحسن معاملتهم ، واحترام المرأة ، كما تعلموا أصول الحرب الشريفة ، والرحمة والكرم والنخوة ، وغير ذلك من الشمائل الإنسانية السامية .

وحدث فى الحروب التى نشبت فى الأندلس ، وفى جنوب فرنسا بين العرب من ناحية ، والأسبان والفرنسيين من ناحية أخرى مثلما حدث فى الحروب الصليبية ، وتلقن الفرنجة هنا وهناك أصول الفروسية العربية النبيلة .

ونشير أخيراً إلى أن بعض مؤرخى الغرب الذين ينكرون كل صلة بين تقاليد الفروسية العربية ، وتقاليد الفروسية الأوربية ، يدللون على وجهة نظرهم هذه بأن الفرسان العرب كانوا أفرادا يتحلون ببعض صفات الشجاعة ، اما الفروسية فى أوربا فكانت نظاماً طبقياً له اصول مفصلة ، ومنهج مرسوم

معلوم !! . . .ومن العجيب أن بعض كتابنا العرب يكررون اليوم هذا القول بغير وعى ، وغير هدف ، فهل يحسبون ان العرب متهمون بمحاكاة تقاليد الفروسية الأوربية ، وان من واجبهم دحض ذلك ؟ الم يفطنوا إلى انهم يجردون العرب بهذا القول المغرض ، من فضل تلقين الأوربيين أصول الفروسية التى لعبت اخطر دور فى التطور الحضارى الحديث ؟ ...

قال المؤرخ « هويزنجا » فى صفحة ٧٠ من كتابه المذكور مستشهداً برأى المؤرخ السويسرى « شاستيليان »: « عرفت القرون الوسطى لوناً جديداً من الشرف والمجد يشمل فئة من الناس بعينها ، أو طبقة متميزة ، ولكن المظنون ان تطلع الفارس إلى المجد نشأ أول ما نشأ فى إيطاليا ، وظهرت بوادره فى افراد متفرقين . . . » والواقع ان تقاليد الفروسية العربية انتشرت فى اوربا خلال العصر الوسيط ، ولم تخضع لنظام الإقطاع الذى كان سائداً هناك وقتذاك ، وتتحول من تقليد يتبعه الأفراد إلى تقليد طبقى إلا بعد ان احتكرها الأمراء والأشراف ، وإذا كان هذا التحول افقدها بعض ميزاتها ، فإنه لم ينل كثيراً من تاثيرها الفعال فى تطور الحضارة الأوربية ، والسمو بها إلى المستوى الذى سمت إليه .

وهناك قراء لا يطمئنون إلى راى إلا إذا وقفوا على مرجعه الأجنبى ، ولا يهم بعد ذلك ان يقام لهم الف دليل دافع على صحته فإلى هؤلاء القراء المراجع التالية .

« تقاليد الفروسية العربية سابقة على نظيراتها فى أوربا » — الجريدة الأسيوية — (الجزء الثامن من المجلد الرابع عام ١٨٤٩) .

« تدل الدلائل على أن نظام الفروسية أقدم عند العرب منه عند المسيحيين » (هامير — بورجستال) .

« تقاليد الفروسية نشات فى الأصل بين مختلف الأمم العربية والأمم السبع » (كتاب « دراسات وخطب » ص ٣٩٦ لشاتوبريون)

« كم من دروس فى تقاليد الشرف والتسامى والنبل تلقتها الصليبيون الهمج عن فرسان الإسلام » (كتاب الشعراء التروبادور ص ٧٥) .

« اقدم ريتشارد قلب الأسد ، ملك الإنجليز ، على قتل الأسرى المسلمين امام صلاح الدين ، فلم يعامله البطل العربى بالمثل ، وعاد بالأسرى المسيحيين إلى دمشق دون ان يمسهم بسوء . فاى الرجلين أكثر تحلياً بتقاليد الفروسية ؟ » (من كتاب « تاريخ أورشليم للمؤرخين » « بيسان » و « ياليه » .

الفنون العربية

يحسب كثيرون من أهل الفكر فى الشرق أن العرب الذين برزوا فى بعض الميادين العلمية ، قصروا كل التقصير فى ميدان الإبداع الفنى ، وقد قال ابن خلدون نفسه فى ذلك : « ليس للعرب فن إلا فن الشعر » .

ولكن هذا القول لا يمكن قبوله على عواهنه ، وإذا نحن سلمنا جدلا بان العرب لم يبرزوا فى ميدان الفن — باستثناء الشعر — فإنهم قد أمدوا الأوربيين بمعارف فنية كانت السبب فى نبوغهم الباهر فى هذا المضمار .

لا يخفى أن تاريخ الفنون العربية عاطل من فن المسرح ، وقد خاضت الأقلام المختلفة الأجناس فى أسباب ذلك وكادت تجمع على أن طبيعة الجزيرة العربية الصحراوية التى فرضت على سكانها التنقل من مكان إلى مكان بحثا عن عيون الماء ، وعن المراعى الجديدة .. وحالت دون قيام المدن الكبيرة ، هى التى لم تتح الظروف الملائمة لنشأة فن مسرحى فى تلك البلاد .

ولكننا لا نرى لهذا الرأى وجاهة ، فما دامت هذه الطبيعة

الصحراوية للجزيرة لم تحل دون قيام سوق عكاظ ، ودون ازدهار محافل الأدب ، فقد كانت قمينة كذلك ألا تحول دون قيام المسرح .

والذى نراه أن الإغريق ، وهم أول من برزوا فى ميدان الفن المسرحى لم يقصدوا بإقامة المسارح فى بلادهم إلا أن يجسدوا آلهتهم على خشبتها ، وبعبارة أوضح ، لم يقصدوا إلا أن يحيلوا أوهامهم الأسطورية إلى حقائق مجسدة . وهذا لا يعنى أن المسرحيات الإغريقية ظلت مرتبطة بهذا السبب الأساسى فى ظهورها فقد تطورت بعد ذلك وانفصمت صلتها به أما الأدب العربى وقتذاك فكان طبيعيا يعكس الواقع ويجسده دون أن يحتاج إلى مسرح يجسد تجسيده . ثم إن العرب كانوا يتشبثون بتقاليدهم وبتراثهم الأدبى ، ويعتزون بهما كل الاعتزاز. فكانت المعلقات والقصائد هى التى تستأثر بأفئدتهم وعقولهم . ومن الطبيعى أن يعجز المسرح بعد ذلك عن منافسة سوق عكاظ ، وأن يقوم إلى جانبه .

ومن المعلوم كذلك أن فن التصوير والنحت لم يرج بين المسلمين الذين كرهوا التماثيل والصور لعلاقتها بتهاويل الوثنية ونصبها وتماثيلها . ولكن وطأة هذه الكراهية خفت كثيرا

لدى العرب فى الأندلس . فهم لم يجدوا حرجا بعد أن وصلوا إلى مرحلة حضارية متقدمة ، فى أن يزاولوا فن النحت والتصوير .

وإذا اكتفينا بالإشارة إلى الأشكال الزخرفية التى حليت بها الجوامع والأضرحة والقصور العربية ، والتى لا ينكر أحد روعة ما عكسته من جمال شكلى ، ومدى ما أحدثته مبتكراتها الطريفة من أثر فى الذوق الأوربى .. إذا اكتفينا بذلك لأن أمرها معلوم ، فإن الذى يستحق التحدث عنه هو الصور الملونة التى تزين سقف (قاعة الملوك) فى قصر الحمراء فهذه الصور تمثل فرسان العرب وقد امتطى بعضهم صهوات جيادهم العربية ، وسدد بعضهم الآخر رماحه إلى صدور أعدائه، وهى تمثل كذلك حسان العرب ، وحيوانات مختلفة ، وأشجارا ونباتات منوعة . وقد حاول بعض الأوربيين أن ينكروا على العرب قيام فنانيهم بابتداع هذه الآيات الفنية ، ولكنهم لم يقدموا دليلا واحدا على صحة ما ذهبوا إليه . وقد تصدى « دى جايونجو » لأولئك المنكرين ، وفند زعمهم ، مؤكدا أن يدا عربية هى التى رسمت تلك الصور ، ومن الأدلة التى قدمها فى هذا الصدد أن ألوان تلك الصور وأساليب رسمها عربية صميمة ، وأن العربى وحده هو

الذى يرسم الفرسان العرب وهم يصرعون اعداءهم المسيحيين (كتاب الشعراء التروبادور ص ٨١ ، ٨٢) .

ومن ثم تعلم رسامو أوربا ان يزينوا أسقف الكنائس والقصور بالصور الملونة . ولعلهم اتخذوا من تلك الصور العربية نماذج لهم ، أو اتخذوا منها نقطة انطلاق للتجديد الفنى الذى حققوه بعد ذلك .

وهناك تحفة فنية فى متحف اللوفر تدل على مبلغ ما وصل إليه العرب من مستوى رفيع فى فن الحضر . هذه التحفة التى عثر عليها الأسبان فى قرطبة ، والتى يدل تاريخها على أنها صنعت سنة ٩٦٨ م ، عبارة عن علبة خشبية اسطوانية حفرت على جدرانها صور نساء يعزف بعضهن على العود ، وتغنى الأخريات ... وصور غزلان ونمور وفهود (نفس المرجع ص ٢٩) .

بيد أن أهم ما يستحق التنويه فى هذا الصدد هو الأثر الكبير الذى ، أحدثته فنون الموسيقى والغناء والرقص فى فنون أوربا المماثلة لها ! ! . .

يحسب أكثر الناس أن هذه الفنون الثلاثة متخلفة عند العرب أو أنها عندهم من لون مختلف كل الاختلاف عن لون نظيراتها فى أوربا وألا صلة بين هذه وتلك ، ومن ثم لايكون

للأولى أى تأثير فى الثانية ، — ولكن الذى يدرس تاريخ الموسيقى الأوربية يدرك مدى خطأ هذا القول .

ونحن نكتفى هنا ، للتدليل على صحة مانذهب إليه ، بنقل بند من المرجع السابق الذكر ، واورده فى ص ٢٨ .

«لم يكف العرب عن تجويد آلاتهم الموسيقية التى نقلوا أصلها البدائى عن بلاد فارس وغيرها ، ثم ابتدعوا الربابة من آلة القوس ذى الوتر الواحد . . . ومن الربابة العربية عرفت أوربا الكمنجة ، وقد أدخلوا كذلك تحسينات جوهرية على اللوت والعود والقانون وتطور الموسيقى يتوقف كذلك فى عصرنا الحاضر على ما يمكن إدخاله على آلاتها من تحسين . . . ولولا آلة الكلافن » التى تولدت من « قانون التخت » ولولا الكمنجة التى تولدت من الربابة ، لظلت عبقرية « باخ » . « وموزار » خرساء ، ولظلت أذننا صماء لانسمع النغمات الساحرة التى تشجيها وتسكرها فى هذه الأيام » .

بهذه الصراحة اعترف هذا الأوربى الصادق بأن الموسيقى الأوربية مدينة للعرب بالمستوى الرفيع الذى وصلت إليه فى عصرنا الحاضر . وإذا كانت هذه الواقعة تحتاج إلى مزيد من الاستشهاد — وهى لاتحتاج إليه — فليرجع القارىء إلى كتاب : « التاريخ

العام للموسيقى » تأليف ل. فيتيس . ونحن نكتفى بان ننقل العبارة التالية من صفحة ٧ من جزئه الخامس فهى تتضمن اعترافا صريحا بما نقرره « الموسيقى الأوربية بنيت فى اواخر القرون الوسطى من أصل عربى »

وكان العرب اول من طوروا فن النظم ، وقرضوا الشعر الغنائى الملائم للنغم الموسيقى ، وفى الحفلات الغنائية التى اشتهرت بها قصور بغداد ، ثم قصور الأندلس بعد ذلك ، ارتقى فن الغناء على نغمات الموسيقى ، وكان لفن العروض الدقيق ، المتنوع التفاعيل ، المتفرد بين الأوزان الشعرية فى العالم كله ، فضل كبير فى ذلك . وقد واصل شعراء الأندلس تطوير الشعر ليجعلوه اكثر ملاءمة للغناء ، فنظموا الموشحات ذات القوافى المتبدلة ، فازداد فن الغناء وفن الموسيقى العربيين ارتقاء ، بينما لم تكن اوربا تعرف إلا الغناء البدائى ، ونغمات القيثار والمزمار غير الموقعة .

وفطن الموسيقيون العرب ، بأوزان الشعر العربى الدقيقة المضبوطة ، إلى التوقيت الموسيقى ، الذى اصبح اساس النهضة الموسيقية العربية ، ولعل الرقص على نغمات الموسيقى المتنوعة

النغمات — وهو ابتداع عربى كذلك[1] ساعد على اتفاق التوقيت الموسيقى إذ كانت خطوات الراقصين تجرى بميقات خاضعة لدقات أكف النظارة .

وإذا طالبنا قارئ بالدليل على ان أوربا كانت على صلة بتلك الفنون العربية تمكنها من تلقينها ، او الإفادة منها ، فإننا نحيله إلى كتاب المؤرخ الفيلسوف رينان فى كتابه « ابن رشد وفلسفته » صفحة ١٥٩ حيث قال : « إن استيراد أوربا للأعمال الأدبية العربية يومذاك امر معروف وكان الكتاب الذى يصدر فى مراكش أو فى القاهرة يشيع ذكره بين مختلف البلاد الأوربية فى سرعة أقل من السرعة التى يستغرقها انتقال الكتاب الهام من عاصمة ألمانيا إلى الشاطىء الآخر لنهر الرين » وقال جون روا فى كتابه « منابت الشعر الغنائى » : « كانت الأغانى العربية الأندلسية تنتشر فى سرعة تفوق سرعة انتشار الكتب . وقد ارتقى فن الرقص عندنا (المقصود فرنسا فى أوائل العصر

---

(١) أخذت الموسيقى المستحدثة تسير قدما فى مدارج الرقى منذ أخذت الأندلسيات يرقصن فى قادس لأول مرة على أنغام الصاجات ومختلف الآلات الموسيقية ذلك لأنها عرفت الأوزان عن تلك الطريق (دى ساس فى كتاب بحث أولى فى الأوزان والتفاعيل العربية ص ٢) .

الحديث) ولكن كيف ؟ ؟ ارتقى بتوجيه الأندلس ، مهد فن الرقص ، ومصدر الشعر الغنائى فى القرنين الأخيرين وقد احكم بريفو حلقة هذا البحث بقوله فى كتابه السابق ذكره ص ٦٤ :

« لقد ازدهر الشعر الغنائى بين ربوع جنوب فرنسا فى أواخر القرن الحادى عشر ، وأوائل القرن الثانى عشر ، أى عقب استرداد طليطلة من العرب عام ١٠٨٦ ، وسرقسطه عام١١١٨ : فقد عنى البلاط الأسبانى بهذا الشعر وبتطويره . ولم يهتم به الفرنسيون فى هذا الوقت بالذات من قبيل المصادفة » .

ومن المعلوم أن الشعراء التروبادور ، وسيأتى ذكرهم فيما بعد ، هم الذين روجوا هذا الشعر فى أوربا .

* * *

ونتنقل بعد ذلك إلى ميدان آخر من ميادين الفنون العربية الذى اغترفت منه أوربا اغترافا . . . وهو ميدان فنون المعمار — والزخرفة وتنسيق الحدائق . . . وقد أشرنا إلى ذلك لماما فى مواضع سابقة من هذا الكتاب ، ونحن ننوى هنا ألا نطيل كذلك فى شرح مدى إفادة أوربا من العرب فى دائرة هذه الفنون فالأمر معروف بل مشهور . وفى قصر الحمراء الذى لايزال قائما خير شاهد مادى عليه . . . بل إن الآثار الباقية

من قصور بغداد والقاهرة تنطق بصحته . وتدل على مبلغ ما وصل إليه فن الزخرفة عند العرب من إتقان وسمو ، ووصف لنا بعض المؤرخين القدامى حدائق قصور القاهرة وبغداد وطليطلة فقالوا : إن ارض ممراتها مفروشة بالجص الملون ، وحفافيها مصنوعة من الذهب ، وجذوع اشجارها مكسوة بأوراق فضية . وكانت الوسائد الجلدية الملونة المنفوخة تطفو على سطح ماء نوافيرها ، وتدور مع الماء الدائر ، وفوقها العازفات والقيان وهن يرددن عزفهن وغناءهن ...

وفي وصف البحتري للبركة في قصيدته المائية ، شاهد جديد على مبلغ إتقان العرب لفن إنشاء الحدائق .

وإذا كان بعض الناس يحسبون أن العرب لم يمارسوا نحت التماثيل فإن الشعر الأندلسي ، الذي وصف تماثيل الأسود في الحدائق والماء ينصب من أفواهها ، يدحض حسبانهم .

وربما طالبنا قارئ بالدليل على ان اوربا تلقنت هذه الفنون عن العرب ... وكثيرا ما يعوز المرء الدليل ، فتحل محله الشواهد القاطعة التي تغني عنه .. لقد قلنا إن ملوك اوربا سكنوا القصور بعد القلاع خلال اتصالهم الأول بالعرب ، وانشاوا الحدائق في هذه الحقبة بالذات ايضا . فهل وقع ذلك مصادفة ؟ .. أليس

فيما قدمناه من وقائع وادلة ما يجزم بأن الأوربيين تعلموا من العرب مختلف الفنون والعلوم ؟ ؟ فكيف نفترض أنهم استثنوا فنون المعمار والزخرفة ، وتنسيق الحدائق فلم يتلقنوها عنهم ؟ إن استعراض الاتجاهات الحضارية الأوربية فى مجموعها ، عقب اتصال الأوربيين بالعرب ، ومقارنتها بالاتجاهات الحضارية العربية يقطع بأن الأولى وليدة الثانية .

ثم إن القصص والمسرحيات الأوربية ، التى كتبت فى أوائل العصر الحديث تتحدث عن سحر الشرق ... وعن الرياح التى تملأ شراع السفن لتدفعها من الشرق إلى الغرب ، محملة بأفخر المنتجات الشرقية . وعن أثر تلك — المنتجات فى تمييز الطبقة الراقية عن طبقة العامة ... ولعل بقايا ذلك الإعجاب والتأثر من سحر الشرق ما زال مغروسا فى نفوس بعض الأوربيين .

أما ارتقاء الصناعات الأوربية بعد محاكاتها بصناعات الشرق العربى فأمره معلوم . ونحن نسوق على سبيل المثال واقعة احسب أن القراء يعرفونها جميعا ، لا تساع شهرتها ، وهى الساعة التى اهداها هارون الرشيد لشرلمان ملك فرنسا فى العهد الذى لم تعرف فيه أوربا الزمن إلا بزحف الظلال —

أو بأنابيب الرمال . . . فقد خاف القوم هناك من تلك الساعة ، متوهمين ان الشيطان يتقمصها ويدير تروسها ، ثم لم يلبثوا ان امتحنوها ووقفوا على سر حركتها ، واستطاعوا بعـد جهد ان يصنعوا مثلها ، ومن ثم ازدهرت فى أوربا صناعة الساعات .





إذا كان الأدب يتأثر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في كل امة ، ويتطور ، خاضعا لها فإنه يكر ثانية فيؤثر في تلك الأمة ، ويهز أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ، ويلعب أخطر دور في تطويرها ، وأى عجب في ذلك وهو يخوض معمعة النضال في سبيل التقدم والرقى ، فيعبر بعضه عن الآراء الرجعية المنهزمة ، ويعبر بعضه الآخر عن الآراء الجديدة البناءة ، وتكتب الغلبة لهذا الجانب الأخير منه في النهاية ، بناء على سنة التطور وانتصار الجديد على القديم .

وإذا طبقنا ما تقدم على ما نحن بصدده قلنا : إن النهضة الأدبية التي اثرت في أوربا إبان القرن الثاني عشر لعبت دورا رئيسيا في إقامه صرح الحضارة الأوربية ، ونحن نقرر ان النهضة الأدبية المذكورة مدينة في كل مقوماتها لأدب العرب ، فإذا أقمنا الدليل على ذلك أقمناه على أن العرب هم الذين لعبوا

الدور الرئيسي فى تطوير الحضارة الأوربية الحديثة ... فى هذا الميدان الأساسى ايضا .

ويحسن بنا ان نسوق نبذة قصيرة خاطفة عن تطور الأدب منذ نشأته ، حتى يسهل وقوف القارئ على الفروق الرئيسية بين طابع الأدب الوثنى ، الذى اتسم به ادب الإغريق ، والأدب الأوربى المحاكى له من ناحية ، وبين طابع الأدب العربى الواقعى الإنسانى ...

قص الكهنة الوثنيون القصص الأسطورية الأولى ، التى كانوا يصوغونها تفسيرا لظواهر الوجود المحيط بهم واحداثه المتقلبة ، التى كانت توفر لهم الخير حينا وتصيبهم بالشر حينا آخر ، ولكنهم لم يدركوا الوجود إلا على النحو الذى صوره لهم ذهنهم القاصر ، ومعارفهم الناقصة ، واوهامهم التى يشحذها الخوف من المجهول ، ويعرج بها عن دنيا الخرافات والأضاليل ، كانوا يظنون أن وراء تلك الظواهر ، والأحداث المتعاقبة عليهم ، قوى خفية تخلقها وتوجهها وفق هواها فرمزوا إلى تلك القوى بمختلف الرموز ، وسجلوا معتقداتهم — او أوهامهم فى قصصهم الرمزية الأسطورية ، التى يدل التاريخ على أنها نواة القصة التى تطورت بعد ذلك وسما اليوم دوحها وتفرع وتشعب .

ولا يفوتنا هنا ان نشير إشارة عابرة إلى أن القصة كانت منذ نشأتها الأولى تستهدف اهدافا اجتماعية . فقد حاول اولئك الكهنة البدائيون فى قصصهم الأسطورية المذكورة أن يوطدوا المثل الأخلاقية القومية القوية التى تدعم نظام المجتمع ، وتوطد أركان أمنه واستقراره ، وأن يجعلوها وسيلة الفوز برضا القوى الخفية والنجاة من شرها ، والتنعم بآلائها — اى يجعلوها وسيلة ازدهار الحياة وارتفاع مستواها ...

وليست بعض القصص المصرية الوثنية القديمة ، ثم ملاحم الإغريق ومسرحياتهم إلا خطوات خطتها القصة فى مراحل تطورها التاريخى وقد لاحظ هيجل تطور الفكر عبر الزمن . وكان اول من فطن إلى ارتباط الأعمال الأدبية التاريخية بعصرها ، ومما قاله فى صدد تطور القصة إنها انتقلت فى عهد الإغريق من مرحلة الرمز إلى مرحلة التجسيد .

ولكن فات هيجل ان قدماء المصريين هم الذين خطوا الخطوة الأولى فى نقل القصة إلى مرحلة التجسيد ، وما أدب الإغريق التجسيدى إلا امتدادا لما بداه المصريون .

لم يعد الإغريق يرون القوى المتصرفة فى شئون الكون قوى خفية غامضة ، كما رآها من سبقوهم ، ولم يرمزوا لها بالنار

او الشمس او العجل او غير ذلك من الرموز ، ولكنهم جعلوا لكل عنصر من عناصر الطبيعة ، وكل عاطفة من العواطف البشرية ، وكل عامل من العوامل المؤثرة فى المجتمع ، إلها يتصرف فى حدود ملكوته وفق مشيئته وجسدوه فى صورة إنسان لا يكاد يختلف عن سائر البشر شكلا ومعنى . وامتلأت أعمالهم الأدبية بتصوير ما نعم به الناس من آلاء الخيرين من أولئك الأرباب ، وما أصابهم من عنت العتاة منهم ، وما بذلوا من جهد للخلاص من حبائل المقدور ، واستدرار عطف الأرباب وغفرانهم .

ومن معنى هذه المؤلفات الإغريقية انبثق الأدب الأوربى خلال الشطر الأكبر من العصر الوسيط ، ولكن لوناً جديداً من الأدب لاحت بشائره كذلك فى أوربا مع حلول القرن الثانى عشر ، واختلف كل الاختلاف فى شكله ومضمونه عن تلك المؤلفات الإغريقية ، ولم يستمد حياته وازدهاره من أى مصدر من مصادر الأدب الأوربى ... فكيف نشأ هذا الأدب الجديد ؟... أنشأ شيطانياً دون جذور تمده بأسباب ازدهاره ؟... أهناك شىء ينشأ تلقائياً دون أن تتهيأ ظروف نشأته وأسبابها ؟...

لابد لكل نهضة أدبية جديدة السمات من أساس تقوم عليه ، شأنها فى ذلك شأن سائر الظواهر الاجتماعية والطبيعية ... فهى

إما أن تقوم كلية على أساس ماضيها المنظور ، وإما أن تنتعش بنسمت ثقافية جديدة تهب عليها من الخارج ، وتلائم اتجاهاتها الفكرية والعاطفية .

ونحن نزعم هنا أن الأدب الجديد الذى ازدهر فى اوربا قبيل عهد إحياء العلوم هو وليد التزاوج بين الوعى الثقافى الأوربى ، الذى أخذ ينمو حينذاك ، والثقافة العربية التى زحفت إلى بعض الدول الأوربية من أسبانيا وصقلية ، ونبنى زعمنا هذا على أنه ـ اى ذلك الأدب الأوربى الجديد ـ يشبه الأدب العربى شكلا ومضموناً ، ولا يشبه غيره من سائر الآداب التى عرفتها أوربا قبل ذلك .

وقد أشار المؤرخ الأدبى « بير ديه » إلى هذا الاتصال ونتائجه فى كتابه « القصة فى سبعة قرون » ، وذكر فى صحيفة ٤٢ من الكتاب المذكور ما يلى .

« ونحن لا نستطيع أن نحدد طبيعة اتصال الصليبيين بالعرب واحتكاكهم بالحضارة العربية ، ولكن الذى لم يعد مجهولا هو ما أسفر عنه ذلك الاتصال والاحتكاك من نتائج اقتصادية وأيدولوجية ، وما تبع ذلك من تطور طرأ على ذوق الأوربيين الحضارى . ومما تسرب إلى الأوربيين عن هذا الطريق ، وعن

طريق اسبانيا ، ميلهم إلى تعلم اسباب الرفاهية المعيشية . ويكفى ان نضرب بالملك بودوان الأول مثلا يدل على مبلغ محاكاة الصليبيين للعادات العربية . فقد اخذ الملك يتصرف تصرف السلاطين العرب ، ويحيط نفسه بمثل مظاهرهم فى بساطة ، ودون اى حرج ، وقد ورد فى هامش الصفحة المذكورة « ونشير هنا بهذه المناسبة ، إلى اتجاه معاد للعرب ، يحاول فى غير وعى ان يتحاشى ، لدى شرح تاريخ الأدب الفرنسى فى العصر الوسيط ذكر ما افاده ذلك الأدب من عناصر الحضارة العربية والأندلسية ... »

وذكر المؤرخ سالف الذكر ثلاث قصص ظهرت فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر هى : « قصة طيبة » و « أنياس » و « قصة طروادة الحديثة » ... فقال عنها : « إنها لون جديد فى الأدب الفرنسى يختلف عما سبقه كل الاختلاف » ، ثم ذكر فى صحيفة ١٧ من كتابه المذكور « ومؤلفو تلك القصص عاشوا فى عصر انتشر فيه الفكر الإغريقى القديم ... ولكن الفكر العربى ذاع خلاله أيضا ، وعم أرجاء العالم الغربى ... » .

ومن المعروف أن نهضة أدبية فكرية عربية ازدهرت فى الأندلس على أثر فتح العرب لتلك البلاد ، وبرغم أن هذه

النهضة تأثرت إلى حد ما بالثقافة الرومانية الأسبانية المحلية ، إلا أنها احتفظت باغلب مقوماتها العربية الأصيلة .... هذه النهضة استطاعت أن تجلى الثقافة الأسبانية المحلية عن الميدان وتحل محلها ، وكم من الأدباء الأسبان الذين خالطوا العرب نزحوا إلى المناطق التي يحتلها مواطنوهم في الشمال ، ونقلوا معهم عن العرب ألوان الأدب الجديد ، وروجوه هناك ... وكم من أدباء عرب وقعوا أسرى فى قبضة الأمراء الأسبان المستعصمين بالمناطق الشمالية ، فقاموا بمثل المهمة التى قام بها الأدباء الأسبان .... وقد طال إهمال الباحثين لمدى ما أحدثه أولئك الأدباء العرب من تاثير فى الاتجاه الأدبى الأسبانى بعد اتصالهم بأدباء بلاط الأمراء ، الذين أسروهم ، بيد أن بعض مؤرخى الأدب الفرنسيين والأسبان بدأوا يسدون هذا النقص أخيرا ، ويستقصون هذا التاثير وغيره مما أحدثه العرب فى الفكر الأسبانى ، ومن ثم فى الفكر الأوربى ومن بين هؤلاء الباحثين الذين ألقوا بعض الضوء على هذا الموضوع « جان فرابيه » و « بيرديه » الفرنسيان ، و « مينتديز بيدال » الأسبانى .... ونحن لن ننساق وراء بعض كتابنا الذين يعتمدون على قيام تشابه بين قصص غربية معدودة ، واخرى

عربية ، للجزم بتولد النهضة الأدبية الغربية فى أواخر العصر الوسيط ، من الثقافة العربية ، فإن قيام التشابه المذكور قد يعد قرينة على ذلك ، ولكنه ليس دليلا حاسما بحال ... إذا اقتبس أحد كتابنا قصة من الأدب اليابانى مثلا ، وحذا آخر حذوه ، ونسج ثالث على منوالها ، فهل يصح أن يعتمد كاتب على ذلك فيزعم أن نهضتنا الأدبية تولدت من الأدب اليابانى ؟.....

إن مثل هذا التدليل لا يقنع احدا ، أما التدليل المقنع فيقوم على إثبات انطباع الأدب الأوربى فى عمومه بطابع الأدب العربى بعد اتصاله به ، واستعارة خصائصه ومقوماته فيه .... وسنشير فى الفصل التالى إلى الفروق بين خصائص كل من الأدب الإغريقى والأدب العربى ، ثم الأدب الأوربى بعد تأثره بهذا الأدب الأخير ...

قلنا فيما تقدم : إن مثل العرب الفكرية والأخلاقية ، ومعانيهم الأدبية ، كانت تنتقل أثناء إقامتهم بشبه جزيرة أسبانيا إلى شمالها حيث اعتصم بعض الأسبان بجبالها ، ومن ثم كانت تتغلغل إلى جنوب فرنسا ، وشمال إيطاليا فلما جلا العرب عن الأندلس ، قامت دولة أسبانية جديدة كبرى ذات ثروة وهيبة ، وقوة عسكرية باطشة . . . دولة بهرت الدول الأوربية التى

أخذت تقتبس تقاليدها وعاداتها ، وتتاثر باتجاهاتها الفكرية ، بل وتحاكيها فى كل خطوة تخطوها ... هذه الدولة الأسبانية الجديدة هى فى الواقع وليدة الحضارة العربية ، أو وليدة تزاوج الحضارتين العربية والرومانية .

وكل مطلع على تاريخ أوربا يدرك ما سبق لنا تقريره ، وهو أن هذه الدولة الأسبانية أصبحت وهى فى إبانها أكبر دول أوربا ، ومحط أنظارها ، والمصدر الذى استقت منه أسس حضارتها الحديثة .

وعلينا أن ندلل الآن على اتصال الأدب العربى بالأدب الأوربى فى الحقبة التى انتعش فيها هذا الأدب الأخير ، أى فى الحقبة الممتدة من أواخر القرن الحادى عشر الميلادى إلى أوائل القرن الرابع عشر ، ثم نتطرق إلى ما احدثه الأدب الأول فى الأخير من اثر .

يلاحظ الذين درسوا الأدب الأوربى وتطوره قبيل العصر الحديث ، ان الشعراء التروبادور هم الذين أحدثوا اكبر أثر فيه ، بل لقد غيروا اتجاهه ، وسددوا خطاه ، فتبدلت حاله كل التبدل حتى عرف السبيل القويم .

والتروبادور هم الشعراء المنشدون الجوالون الذين ظهروا

أول ما ظهروا فى أسبانيا خلال القرن العاشر الميلادى ، وكانت أناشيدهم ، على ما يبدو ، لونا من الزجل العربى[1] الذى تطور ودخلت عليه كلمات أسبانية ، ثم أصبح مزيجا من اللغتين العربية والأسبانية ، ولكنه لم يفقد خصائص الشعر الأندلسى وميزاته الشعرية ، وقد وردت إشارة عابرة عن ذلك فى الصفحة السابعة من كتاب «الشعراء الفرنسيون» للكاتب الفرنسى «اميل هنريو» قال المؤلف : «ازدهرت منظومات الشعراء التروبادور فى جنوب فرنسا منذ أواخر القرن الحادى عشر إلى أوائل القرن الرابع عشر ، وعاصر ذلك ازدهار شعر زملائهم فى جنوب أسبانيا ، وشمال إيطاليا وكان هؤلاء الشعراء المختلفو الأجناس ينظمون شعرهم بلغة واحدة هى خليط من اللغات الإيطالية والفرنسية والأسبانية ، وكانت هذه اللغة الأخيرة هى الغالبة ... ويرى البعض أن للعرب الفضل فى ازدهار هذا اللون الجديد من الشعر ، وقد حدث ذلك عن طريق غزو العرب لأسبانيا من ناحية ، واتصالهم بالأوربيين خلال الحروب الصليبية من ناحية أخرى» ووصف المؤلف كذلك فى مواضع مختلفة

---

(١) أول من نظم الزجل العربى هو « مقدم بن الجبرى » الأندلسى ، وقد عاش فى الأندلس خلال القرن العاشر .

من كتابه المذكور أناشيد الشعراء التروبادور بأنها رقيقة العبارات والمعانى ، إنسانية الاتجاهات فياضة بالحيوية ، وقرر أن الاتجاهات الجديدة لكثير من الأعمال الأوربية تولدت منها .

وظهر الشعراء التروبادور فى ألمانيا ، ورددوا الشعر الغنائى نفسه الذى ردده زملاؤهم فى اسبانيا ، ثم فى فرنسا وإيطاليا .

وأحدث ذلك أثره البليغ فى الأدب الألمانى الناشئ . ولكن المتعصبين من المؤرخين الألمان أنكروا قيام أية صلة بين شعرائهم المنشدين (التروبادور) ، وبين زملائهم الأسبان والفرنسيين ، وادعوا أن شعرهم الغنائى نبت من جذور الأغانى الشعبية الألمانية . وقد سخر المؤرخون الفرنسيون بحق من أولئك الألمان ، ولكن النعرة الوطنية ضللت بعضهم أيضا ، فزعموا إفكا بأن شعر التروبادور نشأ أول ما نشأ فى شمال فرنسا ، لا فى جنوبها ، محاولين بذلك نفى كل صلة بين شعرائهم وشعراء الأندلس ، ولم ينصف العرب فى ذلك غير الإيطاليين الذين أقروا من بادئ الأمر بأن جذور شعرهم نبتت فى الأندلس . ولم يكن دانتى ينقصه وعى ذلك[1] . وقد خصص الكاتب الإيطالى « بربيرى » فصلا كاملا فى كتابه « منابت الشعر

(١) كتاب الشعراء التروبادور السالف الذكر .

المقفى » لشرح كيفية انتقال ذلك الشعر الغنائي — أي شعر التروبادور من الأندلس العربية إلى إيطاليا ورواجه بين ارجائها .

والذى يزيد هذا الموضوع جلاء قول « بريفو » فى أول صفحة من كتابه (الشعراء التروبادور) « نشأ لون جديد من الأدب فى جنوب فرنسا خلال القرون الوسطى ، بينما كانت ملاحم الإغريق الوثنية فى ذلك الوقت هى التى تستثير مشاعر الناس ، وهذا اللون الجديد أجنبي كذلك عن فرنسا ، وقد جلبه إليها الشعراء التروبادور الذين أغنوا به اللغة الفرنسية المحلية وأحدث فى المجتمع الفرنسى الإقطاعى أثرا بليغاً بما عبر عنه من عواطف طاهرة سامية ، وذلك بعد أن أنف ذلك المجتمع من بربريته ، متأثرا بالتيار الحضارى المهذب الذى هب عليه من الأندلس العربية . . . وبعد أن تهيأ لتذوق هذا الشعر المهذب » .

ونختتم أسانيدنا بقول « بيرديه » فى كتابه (القصة فى سبعة قرون) : « نشر العرب فى الأندلس خلال القرن العاشر الميلادى حضارة جديدة أصيلة ، وابتدعوا شعرا غنائيا إنسانيا حمله شعراء التروبادور إلى الشمال ، وتدل المراجع التاريخية على أن القصور الأندلسية ، بعد أن احتلها الأسبان ، كانت تذخر

بشعراء العرب الذين وقعوا فى الأسر ، بينما كانت الحرب لا تزال دائرة بين الأسبان والمسلمين ... ومن السخف أن يتجنب مؤرخو الأدب الفرنسى ذكر هذه الوقائع الثابتة بالأدلة المسجلة » .

وإذا كان الأدب الأوربى قد تغير فجأة فى أواخر العصر الوسيط واتخذ طابعاً عربياً بحتاً ، بعد أن كان على نقيض ذلك ، وثبت أن هذا التغير لم يحدث إلا عقب غزو الشعر العربى لبلاده ، فهل يشك أحد بعد ذلك فى أن الشعر العربى المذكور هو الذى طوره ، وغير اتجاهه إلى الوجهة التى مكنته من بلوغ المكانة التى بلغها ؟

ونذكر الآن تلك الوقائع التى يعرفها القارىء المصرى عن سطو بعض المؤلفين الأوربيين القدامى ، الذين نهضوا بأدب بلادهم — مثل « بوكاشيو » و « دانتى » و « دون جوان » و « شوسر » وغيرهم — على القصص والمؤلفات العربية ، وسرقة بعضها وإفادة ذلك فى تلوين الأدب الأوربى باللون الجديد ، الذى أعانه على التطور والازدهار . . . فإن ذكرها بعد كل ما تقدم يدعم وجهة النظر التى تؤيدها ، ويزيد فضل العرب المنكور وضوحا .

خصائص الأدب العربي

ظل شعراء التروبادور يطوفون بأنحاء أوربا خلال القرون الأخيرة من العصر الوسيط ، وينشدون الناس منظوماتهم التى جلبوا بعضها من الأندلس ، ونظموا بعضها الآخر على غرار الأول ، وإذا بقى شىء من الشك فى أصل هؤلاء الشعراء فإن اسمهم نفسه يدل عليهم . فكلمة تروبادور ليست فى أصلها « كلمة » ، ولكنها « عبارة » مركبة من كلمتين ، أولاهما كلمة « تروب » ومعناها بالأسبانية فرقة — والمقصود فرقة غنائية — وثانيتهما كلمة « تدور » وهى عربية واضحة المعنى ، فالتروبادور هى فرقة من الشعراء المنشدين تدور فى البلاد لتنشد شعر أعضائها .

وسنحاول الآن أن نتحقق من أمرين ، أولهما أن شعر التروبادور ظل محتفظا حقا بخصائص الشعر الذى نبع منه ، وثانيهما أنه أيقظ فعلا نهضة أوربا الأدبية فى الحقبة المذكورة .

اشرنا فيما سبق إلى أن شعر العرب كان يتميز عن شعر الإغريق الوثنى الأسطورى بانه واقعى ، يعكس الواقع المحيط به فى دقة وصدق ، وبأنه إنسانى يحلل مشاعر الإنسان الرقيقة فى تعمق ووعى ، وطبيعى لا يعرف الأساطير ولا يلجأ إلى التضخيم والتهويل . فهل احتفظ شعر التروبادور بهذه الصفات ؟ نعم ، لقد احتفظ بها . وسنستشهد على ذلك ببعض أقوال الأوربيين انفسهم .

تضمن كتاب « القصة فى سبعة قرون » ، وقد أشرنا إليه سابقا ، فصلا ، قارن فيه مؤلفه أدب الإغريق ، الذى تأثرت به أوربا فى العصر الوسيط بالأدب الجديد الذى نشا فى أوربا ، ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى : « ليتحدث من يشاء كما يشاء عن هذه الإنسانية المستفيضة التى تفجرها مفاتن الطبيعة ، وعن الجدة اليانعة فى ذلك الشعر المنقطع النظير . . . لا سيما عندما يصف اضطراب قلب المرأة حين تقع فى حبائل الحب . . . إن غظمته لا تتصل من قريب أو بعيد بذلك القلق الذى ينتاب الإنسان خوفا من القدر المكتوب ، وإنما تقوم على الإيمان بالحياة ، والتغنى بسحر الربيع . . . لقد تبدل العالم الإغريقى الوثنى فى هذا الشعر الجديد ، وبدأ صوت

المرأة يتردد فى أبياته ، بينما كان هذا الصوت لا يعلو فى الشعر القديم إلا لينادى بالويل والثبور ... » .

وسنكتفى باقتطاف نتف قليلة من الشعر العربى القديم ، لندلل على أنه كان يتضمن نفس الصفات والمعانى ، التى رأى المؤرخ الفرنسى فى النبذة السابقة أن شعر التروبادور ، والشعر الفرنسى الذى حاكاه حينذاك كانا يتضمنانها . قال الشاعر العربى القديم يصف المشاعر الإنسانية التى فجرتها مفاتن الطبيعة :

ولما نزلنا منزلا طلّه الندى
أنيقا وبستانا من النوْر حاليا

اجد لنا حسن المكان وطيبه
منىً فتمنينا ... فكنت الأمانيا

وقال آخر يصف الربيع وصفا يكاد يحييه وينطقه :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقال آخر يصف المرأة حين يتملكها الحب :

بنفسى وأهلى من إذا عرضوا له
ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب

ولم يعتذر عـذر البرىء ولم تزل
به سكنة حتى يقـال مريب
وهل ريبة فى ان تحن نجيبة
إلى إلفها أو أن يحن نجيب ؟؟

وقال بشار يصف هذا الصمت الناطق :

وإذا قلت لهـا جـودي لنا
خرجت بالصمت عن لا ونعم

والعربى لا يشغل باله بالغيبيات وألاعيب القدر ، وإنمـا تستحوذ على لبه مطالب قلبـه ، ومطالب الحرب والذود عن الحياض .

قال المتنبى :

وللغيد منى ساعة ثم بيننـا
فـلاة إلى غير اللقـاء تجاب

ثم يعود فيقول :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى
وللحب ما لم يبق منى وما بقى
وما كل من يهوى يعف إذا خلا
عفافى ويرضى الحرب والخيل تلتقى

والمرأة العربية ليست أمة تباع فى سوق الحب أو سوق الزواج ، ولكنها ذات مكانة تعتز بها وتحافظ عليها ، وذات تمنع ودلال قال البحترى :

وهو بالدلّ مستبد (م) وبالحسن منفرد

والشعر العربى يسترسل فى وصف دلال المرأة وحصانتها استرسالا يلفت النظر ، ويغنى عن كل استشهاد ، ويتردد صوتها فى نواحيه عالياً صريحاً جريئاً . بيد أن جرأته تتسم بالحفاظ على الشرف والكرامة .

قال أبو فراس :

تقول لنا من أنت وهى عليمة
وهل بفتى مثلى على حاله نكر ؟
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى
قتيلك ... قالت أيهم فهم كثر ؟

ولا تانف المرأة العربية من الاعتراف بحبها ، رغم أنفتها وكبريائها ، ذلك لأن حبها شريف عفيف لايدعو إلى الاستحياء .

قال عمر بن أبى ربيعة :

وقالت وقد لانت وأفرخ روعها
كلاك بحفظ ربك المتجبر

فأنت أبا الخطـاب غير منـازع
علىّ أمـير ما مـكثت مؤمر

والعربى لا يعز المرأة فحسب ولـكنه يضعها فى أعلى مكانة ، ويؤثرها على أهله وقومه ، والشعر العربىّ ملىء بالأدلة على ذلك، فأنت تجد مثل هـذه العبارات تتردد فيه بـكثرة « بأبى أنت ، وبأمى ، وباهلى وحياتى ... » .

إن الشعر العربى واقعىّ من ناحية تسجيله للواقع. فالشاعر العربى يصف حبيبته ... وحصانه وناقته ، والصحراء المترامية الأطراف ، والنجوم المتالقة فى السماء العربية الصافية ، والرياض والغياض المخضلة وسط اليباب ، والذئاب العاوية تحت جنح الظلام الرهيب ... إنه يصف كل ما يحرك مشاعره وصفاً مباشراً صادقا لا يستعين بالرمز أو الأسطورة ، وهو يحلل عاطفة حبه تحليلا دقيقاً واعيا ... قال ابن الطثرية :

وأذهب غضبانا وأرجـع راضيا
وأقســم ما أرضيتنى بين ذلك

وقال آخر :

أحبـا على حب وانت بخـيلة
وقد زعمـوا ألا يحب بخيل !

وهو ينتقى التشبيه الخلاّب فى وصفه ... قال البحترى :

ويوم تأوّهت للبين وجداً
وكفّت عبرتين تباريان
جرى فى نحرها من مقلتيها
جمانٌ يستهلّ على جمان

وقال آخر :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وبعد أليست خصائص هذا الشعر هى الخصائص التى اتسم بها الشعر الأوربى يوم أن تحوّل من شعر وثنىّ إلى شعر واقعى إنسانىّ؟... أليست هى بعينها الخصائص التى تحدث عنها «بيرديه» عند وصفه للأدب الفرنسىّ الجديد الذى ظهر فى أوائل القرن الحادى عشر ؟... وهى التى ذكرناها فى أول هذا الفصل ؟...

بقى الشطر الثانى من هذا البحث ، وهو الخاص بالنظر فيما إذا كان الأدب الأوربى قد تأثر فى الحقبة التى نتحدث عنها بشعر التروبادور ، واستقام بهذا التأثر ، واهتدى به إلى الطريق السليم الذى انتهى به آخر الأمر إلى النهضة الأوربية المعاصرة .

إن الحكم فى هذا الموضوع جدير أن يترك لحجة فيه ،

ولذلك ندعه للمؤلف «بير ديه» الذى قال فى ص ٩٥ من كتابه السالف الذكر : « عرفت الطبقة الفرنسية ذات السلطان فى مطلع القرن الثانى عشر ذلك اللون الجديد من الحب العف السامى ، وخضع الأدب فيه كل الخضوع لاتجاهات الشعراء التروبادور » .

وعاد المؤلف فى صفحة ٩٧ من كتابه إلى هذا الموضوع فقال : « ... ونشا فى أوربا لون جديد من الشعر يفوق شعر الغزل السابق عليه ، ويتحاشى ذكر آلهة الملاحم القديمة ، وأساطير أوفيد ، ويستبدل بها الحقائق الواقعية » .

ثم حسم الأمر بقوله فى الصفحة ٤١٥ من ذلك الكتاب : « يستطيع المنقب فى القصص المنظومة التى انتشرت فى فرنسا خلال تلك الحقبة ، وفى منظومات التروبادور القصصية ، أن يرى وجه الشبه القريب بينهما ، فالشخوص القصصية مشتركة هنا وهناك ، كذلك يتشابه ترتيب القوافى فى هذا الشعر وذاك » .

بهذا القول قطع هذه الحجة بمحاكاة الشعر القصصى ، وهو اللون الأدبى الغالب فى ذلك العصر ، لشعر التروبادور النابع من المصادر العربية . ولا نحسب الأمر يحتاج بعد ذلك إلى

تدليل جديد ، لا سيما وصاحب القول الفصل فيه أوربى ، فهو بعيد عن شبهة محاباة العرب .

وتتطرق من ذلك إلى ملاحظة قد لا تفوت القارىء الممحص وهى أن الأدب الأوربى الجانح إلى الخيال الشاطح ، المستعين بالرمز ، والمترفع عن الواقع وحقائقه الموضوعية ، هو من رواسب الأدب الإغريقى الوهمى ، بينما أدب أوربا الواقعى تمتد جذوره إلى الأدب العربى القديم .



أثر البيئة
فى الحضارة العربية

آن أن نفى للقارىء بوعدنا ونبحث فى الأسباب الأولى التى طبعت الحضارة العربية بذلك الطابع المتميز الذى شرحناه ...

من المعروف أن العرب كانوا فى الجاهلية متفرقين قبائل وبطونا وأنجادا فى شبه جزيرتهم الصحراوية القليلة الموارد والمراعى . وقد دفعتهم هذه القلة فى الموارد والمراعى إلى التكالب عليها . والحرب فى سبيل الفوز بها ، أو الذود عنها ، أو الأخذ بالثأر ، أو نجدة الصديق ، وغوث الملهوف ، ولم تلبث الحرب أن أصبحت ديدن تلك القبائل ثم أدت إلى النتائج المحتومة فى مثل تلك الحال ، فأصلت صفات الشجاعة والجلد فى شباب القبائل ورجالها . ولم تكن القبائل المغيرة المنتصرة تكتفى باغتصاب المراعى وموارد الماء والأسلاب ، ولكنها كانت تسبى النساء أيضاً ... ومن ثم نما فى صدور

فرسان القبائل شعور بمسئوليتهم عن سلامة حياضهم ونسائهم على السواء . وتوطد بينهم تقليد من أهم تقاليد الفروسية وهو النضال فى سبيل امن المرأة وشرفها وعزتها ... ومن ثم أيضاً سمت مكانة المرأة التى لم تعد تقنع بحالتها ، ولكنها عملت على زيادة منزلتها توطدا، فتعلمت كيف تعز وتدل وتتحمل وتتهذب ، ويكون لها رأى مسموع ، وإرادة مسلم بها على نحو ما شرحنا فى الفصل الذى خصصناه لها ...

وكانت القبائل فى البلاد غير العربية حينذاك تخشى القحط ، وترجف خوفا من ثورات الطبيعة المتقلبة ، ومن المرض والموت والأحلام وغير ذلك من الظواهر التى لا يستطيعون تفسيرها وتعليلها ، وتستعين بالدعوات والسحر لاسترضاء ما تتوهمه من قوى شريرة تريد بها ضرا بينما عرف رجال القبائل العربية أنهم يستطيعون أن يحققوا مطالبهم ، ويوفروا حاجاتهم ، ويدرأوا الشر عنهم بحد سيوفهم دون استجداء العطف والرفق من أرواح الشر التى تتحكم فى الأرزاق ، وتصرف الأقدار .

وعندما اهتدى الإنسان إلى الزراعة وفلح الأرض بالفعل ، احتاج زرعه إلى القدر الكافى من الماء والجو الملائم ، فظل

فى حاجة إلى تلك القوى المجهولة لتصون زرعه وتنميه ، وتصون حياته ، وصحته وتنمى ذريته ...

وأتاحت له الحياة الزراعية الجديدة منادح من وقت الفراغ للتامل فى الواقع ومحاولة تفسيره . وأشعلت ظواهر الطبيعة الغريبة المجهولة الأسباب خياله الخامد . وبذلك ابتدع الأساطير التى راجت بين المجتمعات الزراعية الأولى ، بعد أن أصبحت ظروفها أكثر ملاءمة للتأمل من ظروف أسلافها القبليين . ودليل ذلك ما حققه الأدب الأسطورى فى مصر القديمة من ازدهار مساير لازدهارها الزراعى ... وقد اقتبس ، الأغريق قصصها الأسطورية التى ترامت إليهم عن طريق الفينيقيين وغيرهم من الأقوام الذين عاشوا بين البلدين ، وتنقلوا من أحدهما إلى الآخر وتطورت الأساطير المصرية بعد انتقالها إلى اليونان واتخذت الطابع الذى لاءم الأوضاع لتلك البلاد على نحو ما شرحناه سابقا .

ولكن شأن العرب كان يختلف ، كما أوضحنا عن شان تلك البلاد وثقافتهم تتميز عن ثقافتهم لأن ظروفهم الاقتصادية ، وأوضاعهم العمرانية كانت تختلف عن ظروفها وأوضاعها ،

فعيون المـاء والمراعى القليلة التى أعوزتهم كانت تؤخذ بحد السيف ، والذود عنها كان يعتمد على حد السيف .

واحتاج اقتتالهم المتواصل فى سبيلها إلى الجياد والنياق . فلا عجب إذا كان أهم ما يشغل بال العربى حد سيفه ، وظهر جواده وناقته ، ولمـا كان الشعر تعبيرا عن أهم مايختلج فى صدر الشاعر من أحاسيس فلا عجب كذلك إذا امتلأ شعره بوصف شواغله هذه .

كان رجال القبائل العربية يخوضون المعارك لا ليحموا أموالهم وحياتهم فحسب ، ولكن ليصونوا نساءهم أيضا — وقد أشرنا إلى ذلك — ومن ثم عرفت المرأة العربية فضل رجلها ، وأكبرت شجاعته ، وقدرت حمايته لها وصونه لكرامتها . . . فأصبح فى نظرها حامى الحمى ، والبطل المغوار . وأحدث تقديرها له أثرا عميقا فى نفسه وحرك مشاعر المروءة والنجدة والنخوة ، وازداد حماسة وشجاعة .

وهكذا لم تعد علاقته بامرأته مجرد علاقة جسدية ، ولكنها أصبحت حبا من نوع جديد عجيب . . حبا ساميا يبعث أنبل العواطف الإنسانية وأسماها . . ومن ثم نشأ الحب العذرى كما نشأت تقاليد الفروسية وخلب ذلك لبه واستحوذ على مشاعره ،

فعبر عنه فى شعر الغزل الذى اشتهر به الأدب العربى ، والذى يعد أفضل شعر فى نوعه على الإطلاق . ولم يكن شعر الفخر عندالعرب أدنى فنا وأقل شهرة من شعر الغزل ، لا سيما بعدما تبينوا أثره الساحر فى إشعال الحماسة ، وتأصيل صفات الفروسية فى حماة الحمى .

ومن الآثار التى ترتبت على ما تقدم أن العربى لم يعد يخشى الأحلام والأمراض والموت كما كان يخشاها غيره . بل لم يعد يشغل باله بها وبذلك لم يصور له خياله الأوهام التى كانت تتراءى لغيره . ولم تجد الخرافات والأساطير مجالا للاستفحال فى ذهنه . فنظر إلى الواقع نظرة سليمة صادقة ، وصوره فى شعره على حقيقته دون أن تموهه أضاليل الأوهام .

ولا نكران أن العربى الجاهلى كان يعبد الأوثان ، ويؤمن باللات والعزى وغيرهما من أربابه ، ولكن دينه الوثنى لم يشغل باله كثيرا .

فهو لم يكن يذكر آلهته إلا عندما تحيق به المزيمة ولكنه سرعان ما كان يدرك نصرا إلا إذا أهاب بشجاعته ، واعتمد على حد سيفه ... لقد كان يحارب خصما يعرفه ، ويعرف وسائل قهره . بعكس اقوام العصر القديم الذين كانوا يغالبون عناصر

الطبيعة التي يجهلونها . . . ولذلك تحرر من الخرافة التى كانت تخيم على أذهانهم .

هذه هى الظروف التى سمت بمكانة المرأة عند العرب ، وحركت فيهم مشاعر الفروسية ، وأصلت تقاليدها ، وحررت اذهانهم من الخرافات والأوهام فصانت شعرهم من لوثة الأساطير وحفظته سليما واقعيا صادقا . . . وقد يعترض معترض فيقول إن الأمم غير العربية كانت فى ذلك الزمان تخوض الحروب كالعرب فلماذا لم تتأصل فيها صفاتهم ؟ . . . ولماذا تتحرر من لوثة الخرافات ، ولم يتحرر أدبها من طابعه الخرافى ، ويتجه إلى الواقعية ؟ وليس الرد على هذه الأسئلة مما يغيب عن بال المدقق . فهناك فرق بين الحروب التى تشتبك فيها الشعوب . فلا يتعرض للخطر إلا من كان فى خط القتال . و بين الحروب المتلاحقة التى تنشب بين قبائل العرب فلا تنعم أية قبيلة بيوم واحد تأمن فيه على نفسها وتريح أعصابها المتوترة . كان العربى فى قلق دائم على امرأته وعلى نساء القبيلة وحياضها وأموالهم ، وكان فى حاجة إلى الإغارة المتوالية على خصومه ليفوز بالأسباب ، ويمد بها قومه ، وكان عليه أن يظل متاهباً لينقذ جارا ، أو لينصر مظلوماً ومن ثم أصبح فارسا ، مهمته

الضرب بالسيف لتحقيق الأغراض النبيلة . وأيقن أن هذه الأغراض لا تتحقق بالتوسل إلى الأوثان ، ولكن بالاعتماد على حد سيفه ، وعلى عزيمته وشجاعته ، فاطرح الأوهام بعد وقوفه على هذا الواقع ، وأدرك حياته على حقيقتها ، واستطاع بذلك أن يقيم ثقافته على ذلك الأساس السليم الذى أعان العالم على بناء صرح الحضارة الحديثة .

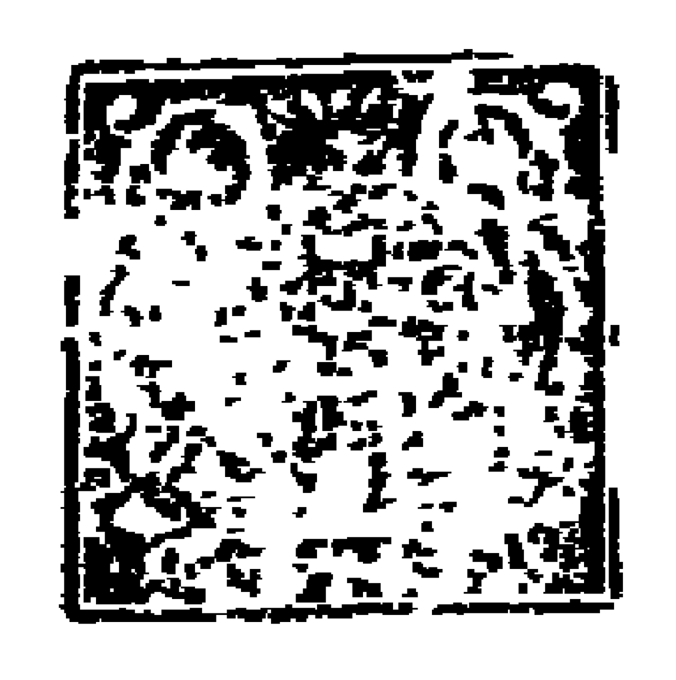


كلمة ختامية

ننتهى مما تقدم إلى أن الأمم كان بعضها يتلقى الثقافة عن بعض وهكذا دواليك . فالإغريق تلقوا مقومات حضارتهم عن المصريين والعرب ... ثم عاد العرب فتلقوا بدورهم فنونا من ثقافة الإغريق . ثم صارت لكل من هاتين الأمتين حضارة ذات طابع خاص بها ، وأن الحضارة ذات الطابع العربى هى التى أثرت فى أوربا الغربية ، وهدتها إلى السبيل الذى انتهى بها إلى ما انتهت إليه اليوم ... ثم إن كل حضارة بذاتها لا تبقى فى الأمة التى نشأت بها على حال واحدة ولكنها تتطور على الدوام . وقد تسير قدما أو يطرأ عليها من الظروف الخارجية ما يعود بها القهقرى إلى وراء .

وليس الغرض من هذا الكتاب أن يثير الغرور فى صدر قومنا ويثنيهم عن السعى لتحقيق أمجاد جديدة باستشعار مفاخر الأمجاد الماضية ، والاكتفاء بها . وإنما الغرض منه أن نعلم نحن العرب أن اجدادنا ساهموا بأكبر نصيب فى بناء مسرح الحضارة الراهنة .

فهى تراثنا قبل أن تكون تراث سائر الأمم التى ساهمت فى تشييدها . ولا غضاضة علينا فى اقتباس مقوماتها النافعة الملائمة لنا ، على أن نطورها فلا نلحق بالركب الحضارى فحسب ولكن نسابقه ونفيدها كما نفيد منه .



المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها للآن :

١ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢ — الإشتراكية والشيوعية ...	للأستاذ على أدهم
٣ — الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى	للدكتور عبد الحميد يونس
٤ — قصة التطور	للدكتور أنور عبد العليم
٥ — طب وسحر	للدكتور پول غليونجى
٦ — فجر القصة	للأستاذ يحيى حقى
٧ — الشرق الفنان	للدكتور زكى نجيب محمود
٨ — رمضان	للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩ — اعلام الصحابة	للأستاذ محمد خالد
١٠ — الشرق والإسلام ...	للأستاذ عبد الرحمن صدقى
١١ — المريخ	للدكتور جمال الدين والدكتور محمود خيرى

٢٩ــ قضيــة كينيا ... ... للدكتور عبد العزيز كامل
٣٠ــ الثورة العرابيــة ... ... « أحمدعبدالرحيم مصطفى
٣١ــ فنون التصوير المعاصرة ... للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٣٢ــ الرسول فى بيته .. .. للأستاذ عبد الوهاب حموده
٣٣ــ أعلام الصحابة (المجاهدون) للأستاذ محمــد خالد
٣٤ــ الفنون الشعبية ... ... للأستاذ رشدى صالح
٣٥ــ إخناتون ... ... للدكتور عبد المنعم أبو بكر
٣٦ــ الذرة فى خدمة الزراعة ... « محمود يوسف الشواربى
٣٧ــ الفضاء الــكونى ... ... للدكتور محمد جمال الدين الفندى
٣٨ــ طاغور شاعر الحب والسلام للدكتور شكري محمد عياد
٣٩ــ قضية الجلاء عن مصر ... للدكتور عبد العزيز رفاعى
٤٠ ــ الخضراوات وقيمتها الغذائية والطبية للدكتور عز الدين فراج
٤١ ــ العدالة الإجتماعية ... للأستاذ المستشار عبدالرحمن نصير
٤٢ ــ السينما والمجتمع ... ... للأستاذ محمد حلمى سليمان
٤٣ ــ العرب والحضارة الأوروبية للأستاذ محمد مفيد الشوباشى

الثمن قرشان فقط

المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة
فاحرص على ما فاتك منها . . .

واطلبها من :

١ ــ دار القلم ... ... ١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

٢ ــ مكاتب شركة توزيع الأخبار ... ... فى الإقليم المصرى

٣ ــ وكلاء الشركة القومية ... ... فى جميع البلاد العربية

٤ ــ مكتبة المثنى ... ... بغداد ــ العراق

٥ ــ تونس ... ... الشركة القومية للنشر والتوزيع

مطابع دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

الأسرة
فى المجتمع المصرى القديم

دكتور عبد العزيز صالح

أول سبتمبر ١٩٦١

دار القلم بالقاهرة



الثمن